بدائع الخيال

نخب من مبتكرات الفيلسوف الروسي تولستوي

تعريب

عبد العزيز أمين الخانجي و اسماعيل يوسف الدروي

الطبعة الأولى

سنة ١٣٣٦ و سنة ١٩١٨

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمدك اللهم ونستعين بك ونصلى ونسلم على سيدنا محمد نبيك ورسولك .

وبعد فقد اشتهر الكونت لاون تولستوى برواياته التهذيبية ومقالاته الاجتماعية شهرة بلغت به منزلة لا يصبو اليها الا ذوو النفوس الكبيرة من دعاة الاصلاح وقد انتشرت تعاليمه ونقلت كتبه ورسائله الى أكثر اللغات الأوربية حتى تداولها أهل القارات الخمس وأصبح ذكره حديث القوم فى مجالسهم ومنتدياتهم الادبية .

وقد وقع بايدينا منذ أيام كتاب صغير من كتبه مترجم الى اللغة الانجليزية يحوى طائفة صالحة من قصصه الصغيرة ضمنها كثيرا من آرائه وأفكاره التى تقضى باطراح الاوهام والخرافات والتحلى بالتواضع والتخلى عن الصلف والعتو والاعتماد على طهارة السيرة والسريرة ومعاملة الغير باللطف والاحسان الى غير ذلك من أغراضه التهذيبية ومراميه الفلسفية التى اشتهرت عنه .

ما كدنا نقرأ هـذا الـكتاب لأول مرة حتى عشقناه وأحببنا تعاليمه وودنا لو أننا عربنا بعض مافيه من القصص التى تجمع بين الفكاهة وتهذيب النفس لينتفع بها اخواننا قراء العربية ويلموا بعض الالمام بطرف من آراء فيلسوف اوربا العظيم الذى غربت شمس حياته فى فجر القرن العشرين

وقد أشار علينا بعض الفضلاء أن نذكر طرفا من حياة تولستوى ليكون قارىء كتابنا على بينة من منزلتـه بين قومه خاصة وأهل أوربا عامة

وهانحن اولاء قد أخـذنا على عاتقنا اتمام هذا العمل على خطورته وقـلة بضاعتنا واتمـاما للفائدة رأينا أن نذيل الترجمة بقصيدة رثاء قالها أمير الشعراء أحمد بك شوقى حين وفاة فيلسوف روسـيا العظيم وفى مأمولنا أن يكون من وراء هذا الصنيع الفائدة الأدبية التى ننشدها بفضـل الله وكرمه انه عليم بالنيات وهو المستعان على تحقيق الغايات .

تحريراً بالقاهرة

عبد العزيز الخانجى و اسماعيل يوسف الدروى

ترجمة حياة الفيلسوف الروسى العظيم
الكونت لاون تولستوى

تمهيد : قد يتوالى كر الجديدين وتمر الايام والاعوام مر السحاب طامسة باقدامها رسوم الاجيال الماضية والناس على ماهم عليه من فطرتهم الاصلية مستسلمون لما ورثوه عن آبائهم من التقاليد والعادات مذمومة كانت أم مرضية فاسدة أم صحيحة، ويظلون كذلك لا يفقهون معنى لما يرونه من المرئيات ولا يحركون ساكنا لما يمر عليهم من صنوف العظات، الى أن يمن الله عليهم بمن يميط اللثام عن سر ما جهلوه ويكشف لهم الستار عن كنه مالم يتحققوه ، فينبههم من رقدتهم ويرشدهم الى ما كانوا عنه غافلين .

أولئك هم أقطاب العلم ورسل التهذيب ومهبط المدنية ونور العرفان، بهم تهتدى الامم وعلى يدهم يتم صلاح الجماعات ونظام الشعوب، غير أن الدهر وهو البخيل بامثال هؤلاء الاقطاب لا يكاد يجود بفرد منهم على رأس كل جيل حتى تنصب عليه سهام اللعنات من كل صوب وتتلقاه الناس بالعداوة والبغضاء ، والسبب واضح جلى فالناس اذا استسلمت مدة من الزمان الى بعض العادات الفاسدة وتوارثت طوال الاجيال العاهات والامراض النفسية بعضها عن بعض ، تصبح بينهم من الصفات اللازمة ولا ينظرون اليها اذ ذاك كعاهات وأمراض بل يعتبرونها كخلال طبيعية أنزلها الله على

آدم، فاذا ماظهر بينهم من هو خال منها غير متحل بها ظنوه ناقصا وناصبوه العداء ونابذوه بالالقاب .

نظرة الى كل من اشتهر بفضل أو عرف بشيء من النبل نعلم مقدار ماعانى من الدهر وقاسى من مناوأة الناس فى سبيل الحق . فهذه أئمة المسلمين وهداتهم مثل مالك والشافعى وفلاسفة هذه الامة ودعاة الاصلاح فيها كالمعرى وابن رشد وابن تيمية ومن تقدمهم وجاء بعدهم من فلاسفة اليونان والرومان والفرس وغيرهم من علماء المعقول والمنقول ممن لا تزال أشخاصهم ماثلة فى أذهاننا ولا تزال نستضيء بنبراسهم قد نغص الدهر عليهم عيشهم وضيق عليهم مذاهبهم اشذوذهم عن المألوف وخروجهم عن المعروف ولم يرجعهم ماهم فيه عن سبيل رأوه هو سبيل الحق بل مازالوا فى عراك وكفاح حتى لقوا ربهم فرحين بما قضوا من واجب الارشاد عليهم غير مكترثين بما لقوا فى سبيل الواجب والكونت تولستوى الذى نقدم الى القراء ترجمة حياته (مقتضبة من دائرة المعارف البريطانية ومجلة الهلال الغراء وبعض المجلات التركية) هو أحد أولئك الافراد الفلائل الذين لا يكاد الدهر يجود بواحد منهم حتى يتفانى الناس فى تمجيد خصاله ويغرقون فى اجلال ذكره واكبار شانه اذ يعمل الفرد منهم على اسعاد نوع الانسان وترقية حال بنى البشر أكثر مما يعمله المئات بل الالوف من معاصريه

ولم أر أمثال الرجال تفاوتا الى الفضل حتى عدَّ الف بواحد

***

نشأته الاولى : تشغل حياة تولستوى ثلاثة أرباع القرن التاسع عشر وعشر سنين من فجر القرن العشرين اذ كان ميلاده فى الثامن والعشرين من شهر اغسطس عام ١٨٢٨ فى قرية (ياسنايا بوليانا) فى ولاية طولا من أعمال روسيا . فانت ترى أن شمس حياته بزغت فى فجر القرن التاسع عشر وعاش معاصرا لكثير من فحول العلماء والفلاسفة مثل هيجو وغوته وغيرهما من الذين ولدوا معه فى فجر القرن وغربت شموس حياتهم فى أصيله

وأسرته المانية الأصل هاجرت فى عهد بطرس الأكبر واشتهر منها بطرس تولستوى الذى كان سفيراً لروسيا لدى الدولة العثمانية وأدخل فى مصاف الأشراف عام ١٧٢٤ وكان لهذه الاسرة منزلة رفيعة بين الأسر الروسية اذ اشتهر كثير من أبنائها بالسياسة ونبغ آخرون منهم فى فن الكتابة

أما أمه فكانت من بيت مجيد عريق فى الحسب وشرف الاصل يعرف بأسرة فولكون وكانت القرية التى ولد فيها الفيلسوف ملكا لها فاقامته فيها ليقضى أيام طفولته ولكن وافاها القدر المحتوم وهو فى إبان نشأته فعهد بتربيته الى سيدة من ذوات قرابته وانتقل به والده اذ ذاك الى مدينة موسكو حيث عاجلته المنية قبل

أن يبلغ الكونت العاشرة من عمره فعهد بتربيته الى سيدة اخرى من ذوات قرابته تدعى بوشكوفا فعادت به الى قرية ياسنايا مقر ولادته وهناك تلقى دراسته الأولية

تعليمه : وما كاد يبلغ الخامسة عشرة حتى انتقل الي مدينة قازان وانتظم فى سلك جامعتها مدة عامين توفر أثناءهما على دراسة بعض العلوم العالية وفيها درس أيضا بعض اللغات الشرقية غير انه ما لبث ان عافت نفسه الجامعة ودروسها لنفوره من اخلاق تلامذتها فعاد الى قريته ثانية وأكب هناك على مطالعة كتب مشاهير المؤلفين والادباء من الروسيين والفرنسيين والالمان أمثال روسو وهيجو وفولتير وديكنز وبوشكن وترجنيف وشيللر وغوطه ولكنه كان أشد تعلقا بمؤلفات روسو، فعاش عيشة مستقلة لا يحتاج فيها الى مرشد ولا مؤدب الا الدهر وحوادث الايام وتتبعاته الشخصية .

أوائل شبابه : وقد أخذت الاعتبارات الفلسفية تشغل أفكاره فى أوائل شبابه فكان شغله الشاغل أيام صباه هو التفكير فى (ماهو الانسان ؟) و (من أين أتى ؟) و (الى أين مصيره ؟) و (ماهى السعادة ؟) الى غير ذلك من المسائل الفلسفية العويصة التى كانت ترد مخيلته تباعا آخذة بعضها برقاب بعض حتى نشأ عنده ميل خاص للمباحثات والمناظرات فكان يقضى طوال الساعات

والايام فى مجادلة أقرانه ومناقشتهم فيما يعرض له من الافكار.

انتظامه فى سلك الجندية : وبينما كان الفيلسوف الشاب على الحال التى وصفناها لك حائرا بين تأثيرات الطبيعة وموحيات الكتب والاسفار اذ زاره شقيق له أكبر منه سنا فى قرية (ياسنايا) وكان شقيقه هذا من ضباط الجند الروسي ببلاد القوقاز، فوصف له حالة الجند وما هم عليه من نضارة العيش ورفاهة الحال ومازال به يحسن له حالته ويرغبه فى الانتظام بسلكهم حتى رضي وأطاع شقيقه فاصبح فى عداد الضباط وهو فى الثالثة والعشرين من عمره، وعند نشوب حرب القرم انتقل الى الطونه وانضم الى أركان حرب البرنس غورتشاكوف ثم انتقل الى سباستبول حيث عين قائداً لفرقة من المدفعية. وكان لانتقاله من بيئة لاخرى أثر كبير فى اثارة قريحته وتوسيع خياله فتغيرت أطواره وتحولت كليته وتبطنت أعماق نفسه بانفعالات كثيرة ظهر على إثرها أهم مؤلفاته التى يصف فيها حالة الجند وأهوال الحروب وما يكابده الانسان من فظائعها

زواجه : وفى العقد الرابع من سنى حياته تطلع الى السفر فسافر سنة ١٨٦٢ وساح فى بعض انحاء اوربا ثم رجع الى قريته واقترن فى العام الثانى بالسيدة صوفيا ابنة الدكتور بيرس الالمانى الذى كان يقيم فى موسكو فاضطر تولستوى أن يداول السكنى بينها وبين قريته وكانت قد نضجت مواهبه واتسعت معلوماته

لكثرة ماشاهده واختبره بنفسه وكانت الحكومة قد عينته قاضيا فى قريته فبدأ بنشر تعاليمه وأخذ يدعو الناس الى السلام والفضيلة سواء أبا القدوة أو بالتعليم

عيشته اليومية : وقد اشتهر بزهده فى الحياة وتخليه عن مظاهر الوجاهة فكان فى قريته مع زوجته وأولاده فى منزل بسيط محاط بغابة كثيفة ليس فيه من الاثاث الا الضرورى فكان يقوم مبكراً فيلبس ثوبا بسيطاً مثل أثواب الفلاحين، وهو عبارة عن سراويل واسعة فوقها كساء كالقميص يتمنطق حوله بسير من الجلد .

وكان يتناول طعام الافطار ثم يذهب الى العمل فى حرث الارض وتمهد أشجارها وبذر الحبوب ومساعدة ضعفاء الفلاحين فى أعمالهم .

سيرته بين قومه : كانوا يعجبون بتواضعه ويستأنسون بدعته ولطف شمائله فاذا وقع بينهم خلاف تقاضوا اليه وارتضوا حكمه وكان قد أنشأ فى قريته مدرسة ينفق عليها من ماله الخاص لتعليم أبناء الفلاحين وكان يتولى تعليمهم بنفسه، فاشتهرت المدرسة وقصدها أهل المدائن الاخرى المجاورة يلتمسون الاستفادة من آرائه وفلسفته وأنشأ لهم أيضاً مجلة تهذيبية تصدر باسم القرية وقد بلغ من محبته لفلاحى قريته انه أراد أن ينبذ فكرة الاستئثار

بالملك الشخصى وأحب أن يوزع أملاكه بينهم بالتساوى فيشتغل كواحد منهم ولكن زوجته وذوى قرابته أبوا عليه ذلك . تلك كانت حاله بالصيف أما فى الشتاء فكان يقيم فى موسكو فينقطع عن الاعمال البدنية وينفرغ للتأليف والتحبير فيؤلف ويراسل ويكاتب .

حياته العلمية : لا نكاد نذكر اسم تولستوى حتى يخطر على البال مؤلفاته العديدة ورسائله المتنوعة وأشهرها (الحرب والسلم) و (البعث) و (حنا كرانينا) و (القيامه) و (أين المخرج) و (الحب والزواج) و (بم يعيش الناس ؟) و (ديانة المسيح) و(الحياة) و (مملكة الظلام) غير أننا لا نكون مبالغين اذا قلنا ان لرواياته الثلاث الاولى وهى : (الحرب والسلم) و (البعث) و (حنا كرانينا) القدح المعلى والمكانة السامية فى عالم الادب والتأليف لا فى الروسيا فقط بل فى جميع العالم الاوربي . ولا مراء فى أن هذه الروايات الثلاث هى الدرة اليتيمة وواسطه القلادة بين درر مؤلفاته وغوالى حكمه فان رواية (حنا كرانينا) تمتاز بدقة البحث فى تصوير ما يحصل عادة فى عالم الزواج من الآلام والاضطرابات التى منشؤها عدم التروى والمضى مع الاهواء النفسية وفى روايته (البعث بعد الموت) وصف الامراض الاجتماعيـة وصورها بكل ألوانها ومعانيها مع ذكر كيف أن الناس فى هذا العصر أصبحوا

يتنشقون سموم الظلم والاستبداد ويتجرعون كؤوساً ملؤها الكذب والرياء بدل استنشاقهم الهواء وشربهم الماء . وفى هذه الرواية يقول الناقد الفرنسى المعروف جول لومتر: « كتب تولستوى روايتيه (الحرب والسلم) و(حنا كرانينا) ثم خجل من الشهرة وبعد الصيت اللذين نالهما أثر ظهورهما فاحتجب فى كسر داره واختفى بين صحائف الانجيل مدة خمسة عشر عاماً ثم ظهر فى عالم الادب ثانية وفى يده اعجوبة مؤلفاته كتاب (البعث بعد الموت) »

ولو أمعنا النظر فى حياة تولستوى المعنوية نرى أنها بكل ألوانها ومظاهرها سياسية كانت أم اجتماعية دينية أم خلقية عبارة عن سلسلة حروب شعواء كان يشنها ذلك الرجل العظيم ضد الظلم والاستبداد ومفاسد المدنية الحاضرة ورذائلها ، فكان يرى رأى روسو القائل بان صلاح الناس أو فسادهم انما يدخل عليهم من باب المعاشرة والمخالطة ويسلك اليهم من طريق البيئة والجوار ثم نظر الى المدنيـة الحاضرة المشعشعة بالانوار الكاذبة وفطن الى ما تحت تلك الاضواء من ظلمة المفاسد والرذائل وعلم أن التبعة فى فساد نظام الاجتماع واقع على الرئاسات الدينية والسياسية فوقف حياته على ايقاظ أخوانه فى الانسانية وقضي معظم حياته يدعو الناس الى دينه الجديد (Religion de la bonté) وأساسه ايجاد رابطة المحبة والشفقة بين الناس وعدم مقابلة الشر بمثله ولذا نرى

ان روح هذا المبدأ تتجلى فى أغلب كتبه وتعاليمه التى تكاد تنطق بلسان واحد هاتين القاعدتين الحكميتين وهما :

(١) أحبوا بعضكم بعضا

(٢) لا تقابلوا الشر بمثله

مقارنة بينه وبين ابى العلاء : ذهب بعض كتاب اوربا الى وجود الشبه بين تولستوى وبين روسو وعزز رأيه بادلة لامحل لذكرها فى هذه المقدمة الوجيزة وانا نرى انه من الظلم أن نختم مقدمتنا دون أن نذكر ما رأيناه من وجوه الشبه بين حياة صاحب الترجمة وحياة أبى العلاء المعرى المولود سنة ٩٧٣ م . فكلا الرجلين عاش زاهداً فى الحياة وكلاهما ناله من اضطهاد رجال الدين ما نغص عليه العيش وضيق دونه المذاهب ولكلاهما آراء فى الحياة ونظرات فى الاجتماع تتفق معنى ومبنى

اشتهر تولستوى بزهده فى الحياة وتخليه عن مظاهر الوجاهة على نحو مامر بك فى مقدمتنا هذه ، كذلك كان أبو العلاء زاهدا فى الحياة متخليا عن ملذاتها يردد قوله :

أتتنى من الايام ستون حجة وما امسكت كفاى ثنى عنان
ولا كان لى دار ولاربع منزل وما مسنى من ذاك روع جنان
تذكرت أنى هالك وابن هالك فهانت على الارض والثقلان

الا انهما و إن زهدا فى كل لذات الحياة فقد رغبا فى العلم والتأليف

اللذين قد ملكاهما واستأثرا بهما ولاشك ان ذلك كلفهما معاشرة الناس ومجاملتهم الى حد معلوم فان أبا العلاء كان مضطراً الى عشرة الناس لاحتياجه الى من يقرأ له ويكتب عنه ولذلك لم يكد يستقر فى المعرة حتى اشتغل بالتعليم فالتف حوله الطلاب من جميع الاطراف . كذلك كان تولستوى مضطرا لمجاملة زواره العديدين الذين كانوا يقصدونه من أقاصى البلاد يلتمسون الاستفادة من فلسفته وآرائه .

وصف الرحالة ناصرى خسرو أبا العلاء المعرى بقوله : « ويحكمها (أى المعرة) رجل ضرير يعرف بأبى العلاء عظيم الثروة يملك عددا ضخما من العبيد وكان سكان المدينة كافة خدمه أما هو فيحيا حياة خشنة يلبس غليظ الصوف ولايغادر بيته ولا يأكل الا الشعير وسمعت الناس يتحدثون بان بابه لايغلق وأن نوابه يعملون فى تدبير المدينة ولايلجأون اليه الافى مهام الأمور . الخ » . ولو صح هذا الوصف وهو ما أثبت احتماله العلامة طه حسين فى كتاب (ذكرى أبى العلاء) صحيفة ٢٣٠ بقوله : « فمن الظلم للتاريخ ان نمر بهذا الخبر من غير أن نثبت هذا الاحتمال » لكان مشابها للمعيشة التى كان يعيشها الفيلسوف تولستوى فى قريته بين فلاحيه ومريديه [1]

---

١) لم نجد في كل التواريخ التى ترجمت تاريخ حياة ابي العلاء ما يحقق قول الرحالة أو يثبت احتمال الاستاذ طه حسين فقد اجمع الكل على أنه كان

كان تولستوى يرى أن نظام الاجتماع فاسد يحتاج الى اصلاح وان فساده ناجم عن الرئاسات الدينية والسياسية كذلك كان يرى أبو العلاء وصرح بهذا الرأى غير مرة فى اللزوميات وسقط الزند فمن ذلك قوله :

ساس الانام شياطين مسلطة فى كل مصر من الوالين شيطان

وكذلك قوله :

مل المقام فكم أعاشر أمة أمرت بغير صلاحها أمراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها فعدوا مصالحها وهم أجراؤها

رأى تولستوى فى المرأة قبيح لانه يسيء الظن بها فى كل أطوارها ويرى أن تقطع كل علاقة بينها وبين الحياة العامة فمن ذلك قوله : « على الرجل أن يراقب سلوك امرأته ولايطلق لها

فقيرا لا يملك من عرض الدنيا غير القليل التافه وقد رفض هبات الملوك واعطيات الامراء وعاش قانعاً باليسير اذ كان له وقف يحصل منه فى العام على ثلاثين دينار قدر منها لمن يخدمه النصف. الا اننا مع ذلك لا ننكر ما كان لاسرته التنوخية من الوجاهة وما كان لابى العلاء نفسه من المكانة في نفوس أمراء عصره وقد ذكر الذهبي نقلا عن القفطى « ان صالح بن مرداس صاحب حلب خرج الى المعرة وقد عصى عليه اهلها فنازلها وشرع في حصرها ورماها بالمجانيق فلما احس اهلها بالغلب سعوا الى ابى العلاء بن سليمان وسألوه ان يخرج ويشفع فيهم فخرج ومعه تائب يقوده فأكرمه صالح واحترمه ثم قال الك حاجة قال: الامير اطال الله بقاءه كالسيف القاطع لان مسه وخشن حده وكالنهار المبالغ (؟) قاظ وسطه وطاب برده خذ العفو ومر بالعرف واعرض عن الجاهلين . فقال له صالح قد وهبتها لك »

العنان بل يحجبها فى البيت والبيت دائرة حرية واسعة للمرأة » (١)
وقال فى موضع آخر فى الزواج : « ان الزواج أصبح فى عصرنا هذا بيننا محض خداع وغش ولكنه لا يزال يوجد عند أولئك الذين يرون فيه سرا من أسرار الدين كالمسلمين والصينيين والهنود أما نحن فلا نرى فيه غير تلك المقارنة الحيوانية » (٢)

ولأبى العلاء راى فى المرأة كثير المطابقة لرأى تولستوى فهو كثير الظن بها ويرى أن تعيش بمعزل عن الحياة العامة وتشدد فى طلب الحجاب كما أشار فى قوله :

علموهن النسج والغزل والرد ن وخلوا كتابة وقراءه

وكذلك قوله :

فحمل مغازل النسوان أولى بهن من اليراع مقلمات

ومنه قوله فى التائية :

ولا ترجع بايماء سلاما على بيض أشرن مسلمات
ألات الظلم جئن بشر ظلم وقد واجهننا متظلمات
فوارس فتنة أعلام غى لقينك بالاساور معلمات

ذكرنا آنفاً كيف أن تولستوى نبذ الاعتقاد القائل بالاستئثار الشخصى وأراد أن يقسم أملاكه بين فلاحيه ويشتغل كواحد منهم فكانه بذلك يعزز رأى ابى العلاء القائل :

(١ و ٢) ن كتاب حكم النبى محمد لتولستوى تعريب الاديب الفاضل سليم افندى تيمين

كيف لا يشرك المضيقين فى النعـــمة قوم عليهم النعماء

وقوله فى هـذا المعنى كثيرة يقف عليها القارىء فى اكثر (لزومياته).

الى هنـا ننتهى من المقارنة بين افكار بطلى القرن التاسع والقرن العشرين بعد الميلاد، والى هـذا الحد نكون قد أنجزنا ما وعدنا به القارىء من ترجمـة حياة فيلسوف روسـيا العظيم (الكونت لاون تولستوى) الذى أفـل نجم حياته فى ٢٠ نوفمبر عام ١٩١٠ ليكون على بينة من تاريخ حيـاة أحـد رجال العالم العظماء الذين أفادوا النوع الانسانى بافكارهم الصالحة وسيرتهم المبرورة وسريرتهم الطاهرة

***

قصيدة أمير الشعراء احمد شوقى بك فى رثاء هذا الفيلسوف

(طولستوي) تجرى آية العلم دمعها ... عليـك ويبكى بائس وفقير

وشعب ضعيف الركن زال نصيره ... وما كل يوم للضعيف نصـير

ويندب فلاحون أنت منارهم ... وأنت سراج غيبوه منـير

يعانون فى الاكواخ ظلما وظلمة ... ولا يملكون البت وهو يسير

تطوف كعيسى بالحنان وبالرضا ... عليهم وتغشى دورهم وتزور

ويأسى عليك الدين اذلك لبه ... وللخادميـه الناقـين قشـور

أيكفر بالانجيل من تلك كتبه ... أنا جيـل منها منذر وبشـير

تناول ناعيك البلاد كأنه ... يراع له فى راحتيك صرير
وقيل تولى (الشيخ) فى الارض هائما ... وقيل بدير الراهبات أسير
وقيل قضي لم يغن عنه طبيبه ... وللطب من بطش القضاء عذير
اذا انت جاورت (المعرى) فى الثرى ... وجاور (رضوى) فى التراب ثبير
وأقبل جمع الخالدين عليكما ... وغالى بمقدار النظير نظير
جماجم تحت الارض عطرها شذى ... خباهن مسك فوقها وعبير
بهن يباهى بطن (حواء) واحتوى ... عليهن بطن الارض وهو فخور
فقل ياحكيم الدهر حدث عن البلى ... فانت عليم بالامور خبير
أحطت من الموتى قديما وحادثا ... بما لم يحصل منكر ونكير
طوانا الذى يطوى السموات فى غد ... وينشر بعد الطى وهو قدير
تقادم عهدنا على الموت واستوى ... طويل زمان فى البلى وقصير
وهل عالج الاحياء بؤسا وشقوة ... وقل فساد بينهم وشرور
قم انظر وأنت المالىء الارض حكمة ... أأجدى نظيم أم أفاد نثير
أناس كما تدرى ودنيا بحالها ... ودهر رخى تارة وعسير
وأحوال خلق غابر متجدد ... تشابه فيها أول وأخير
تمر تباعا فى الحياة كأنها ... ملاعب لاترخي لهن ستور
وحرص على الدنيا وميل مع الهوى ... وغش وافك فى الحياة وزور
وقام مقام الفرد فى كل امة ... على الحكم جمع يستبد غفير
وحور قول الناس مولى وعبده ... الى قولهم مستأجر وأجير

وأضحى نفوذ المال لا أمر في الورى ... ولا نهي الا ما يرى ويشير
تساس حكومات به وممالك ... ويذعن اقيال له وصدور
وعصر بنوه في السلاح وحرصه ... على السلم يجري ذكرها ويدير
ومن عجب في ظلها وهو وارف ... يصادف شعباً آمناً فيغير
ويأخذ من قوت الفقير وكسبه ... ويؤوي جيوشاً كالحصى ويمير
ولما استقل البر والبحر مذهباً ... تعلق أسباب السماء يطير

الحكاية الاولى

بم يعيش الناس

كان سيمون صانع أحذية لا يملك من الارض قيد شبر، وكان يقطن كوخا لاحد الفلاحين ويعيش من كسب يده. لقد كان العمل إذ ذاك كاسدا وحركته خامدة، وزاد الطين بلة أن سبل العيش كانت مجهدة ونار الغلاء متأججة في كل حاجيات الحياة لذلك كان كل ما يقبضه سيمون ثمنا لعرق جبينه ينفقه في سبيل الحصول على قوت يتبلغان به هو وزوجه. لم يكن لذلك الشيخ وزوجه إلا غطاء جلدي يتقاسمانه سويا ليدفع عنهما قر الشتاء، ولقد استنهرت فتوق ذلك الغطاء فكان هذا هو العام الثاني الذي احتاجا فيه الى شراء غطاء آخر. لذلك خرج سيمون متوكئا على عصاه موليا وجهه شطر القرية حيث يمكنه أن يجمع من بعض القرويين

ماهم مدينون به من النقود . فوفى له بعضهم وأمهله البعض و نقده أحدهم عشرين كوبكا (١) ، فلم يكن ذلك المبلغ كافيا لشراء الغطاء ولكنه كافيا لان يدفعه سيمون ثمنا لبعض كؤوس من الفودكا (٢) . بعدئذ قفل راجعا الى منزله كسير القلب وأخذ يندى فى طريقه تارة عن غضب زوجه وسخطها عليه وآونة يخاطب القروى الذى أعطاه العشرين (كوبكا) قائلا : «قف قليلا : وأنقدنى كل ما أنت مدين به . انك أعطيتنى عشرين (كوبكا) فقط وادعيت الفاقة ولكن ماذا يهمنى وماذا عساى أن أفعل بهذا المبلغ ؟ انك تملك دورا وماشية واما أنا فلا أملك الا ما أسد به الرمق . انك تملك الحقول الغنية بالحب والثمر وأما أنا فاشترى كل حبة من قوت يومى ، انك تستزيد من كل شىء وأما أنا فاحتاج الى أقل شىء فانت مترف ذو نعمة وأنا شقي ذو مترية اذا يجب أن تدفع . هلم لا تتردد» وماوصل من هذيانه الى هذا الحد حتى كان قد انتهى الي معبد مقام عند منعطف الطريق ، فنظر واذا به يرى شبحا أبيض يلوح وراء المعبد فلم يتبينه تماما لان طلائع الليل أخذت تطرد جيوش النهار من تلك البطاح والوديان ثم أخذ يسائل نفسه : « ما عسى أن يكون هذا الشبح ؟ إنه حجر أبيض . ولكنى لم أشاهد هنا حجرا قبل الآن . الا يكون ثورا اذاً ؟ ولكن لا . فان رأسه

---

(١) الكوبك عملة روسية قيمتها $\frac{1}{100}$ من الروبل الروسى اى انها تساوى مليما (٢) شراب روسى

تماثل رأس الانسان الا انها ناصعة البياض وماعسى أن يفعل الانسان هناك . » ثم اقترب من الشبح قليلا قليلا حتى تجلت امامه حقيقته وزال ماخامر فؤاده من الريب .

ماذا رأى ؟ رأى رجلا عارى الجسد جالسا بانحناء وراء المعبد لاحراك به . فتوجس سيمون من نفسه خيفة وهاله ذلك المنظر وظن أن أحد الغرويين ظفر به فقتله ثم تركه فى تلك البقعة . فاوسع خطاه وسار من امام المعبد حتى لايمر بالشبح ، ثم حانت منه التفاتة الى الوراء فرأى الرجل يتبعه بنظراته فدب فى قلبه دبيب من الرعب والاشفاق وأخذ يفكر فيما اذا كان يرجع اليه ليستقصي خبره ويستفسر عن حاله أو يستمر فى طريقه . فآثر الاخرى وظن أنه ان دنا منه فهو ليس بناج من شروره وأيضا فهو غير قادر على أغاثة رجل عارى الجسد .

ماخطا سيمون بضع خطوات حتى شعر بتقريع الضمير وأخذ يسائل نفسه : « ماذا أنت فاعل ياسيمون : أتهرب من إغاثة ملهوف ربما كان على شفا الموت ؟ اتعدو خوفا من أن تساعد نفسا ربما كانت تلفظ آخر أنفاسها ؟ إنه من العار أن يقال عن سيمون رفى طريقه ببائس فم يجده وملهوف فلم يغثه » ثم قفل راجعا نحو ذلك الغريب المسكين واقترب منه فلم ينتبه اليه كأنما بلغ به الضعف الى درجة لم يمكنه معها أن يرفع جفنيه أو يدير عينيه

وتأمله فرآه فتى فى مقتبل العمر صحيح الجسم لا تشوبه الكلوم ولا تشوهه القروح ، ثم اقترب منه ثانية فتحرك الغريب وأدار رأسه الابيض وفتح عينيه الفاترتين والقى نظرة على وجه سيمون فكانت كافية لان تبعث فى قلبه الرحمة على ذلك الغريب وتملأ فؤاده رفقا وحنانا على هذا البائس المسكين .

ثم البسه بعض ثيابه وأمره بالحركة حتى يتمشي الدم بين أعضائه وبدأ فى المسير فاخذ سيمون يسأله « من أين أنت ؟ وما الذى حدا بك الى هذا المكان ؟ أطرقتك بوائق الاحداث أم هل وصلت اليك أيدى المسيئين حتى دفنت حيا بين طبقات الجليد المتجمدة ؟ فاجابه قائلا « انى غريب عن هذه الديار ولم يسيء الى أحد ماول كنه عقاب الله حق على » فاجاب سيمون :

— يجب أيها الصديق أن تقابل ذلك بالرضاء والتسليم فالله رب الكل ، بيده كل شيء وهو على كل شيء قدير . والآن أى جهة تقصد » .

— « كل الجهات عندى سواء » ، فبدت على سيمون علامات الاندهاش لان الرجل لم تكن هيئته تشف عن خبث ولم يدل مظهره على أنه من السفلة — واستمر سيمون فى حديثه قائلا : « هلم معى اذاً الى المنزل ريثما تدفىء نفسك قليلا » ثم سارا سويا وأخذ سيمون يهيئم قائلا : « إنى ذهبت لشراء الغطاء فعدت الى منزلي بدونه وزيادة

على ذلك أحضرت معي رجلا عارى الجسد : إن ماتروينا (١) ليغلى مرجل حقدها عند ماتعلم ذلك » وكان كلما عاودته ذكرى زوجته يطرق برأس عابسا ولكنه كلما تذكر حالة ذلك المسكين ونظراته المؤلمة عاودته بشاشته وطفح ثغره فرحا وسرورا

أما (ماتروينا) فقد أنهت كل واجباتها المنزلية فى ذلك الصباح وجلست تفكر فى زوجها وماعسى أن يكون قد فعل . واذا بها ترى رجلين مقبلين أحدهما سيمون والآخر غريب لم تعرفه فدار بخلدها لاول وهلة أن زوجها احتسى بعض كؤوس من الخمر وما الآخر الامن أعوانه السكيرين، ثم بدأت تصخب ولكنها انتظرت رئيا ترى ماذا يصنعان : دخل سيمون منكس الرأس خجلا ثم تبعه صديقه الذى ظل واقفا صامتا لا يبدى حراكا فلم تتردد ماتروينا فى أنه من السفلة الأشرار . أما سيمون فقد خلع قبعته واستوى جالسا على أحد المقاعد كأن المياه مازالت جارية فى مجاريها ولم يحدث شىء يثير غضب زوجه ثم دعا صديقه ليجلس بقربه ففعل، ثم خاطبها قائلا:

« الآن يامتروينا قدمى لنا ماعندك من العشاء» فنظرت اليهما شزرا وازداد حنقها وأجابته « إنى أعددت كل شىء ولكن ليس للسكارى الذين تلعب برؤوسهم الخمر فتخرجهم عن المألوف »

---

(١) زوجه سيمون

— «ماترو ينا : لاتكثرى من تهدجك وضمى حدا لثرثرتك . يجب أن تعرفى أولا من هو هذا الرجل» فاجابته: «إنى لاأشك فى أنه من أبناء الحانة الشريرين . فقال: «كلا فانت مخطئة» فقاطعته قائلة وأين النقود فصمت سيمون فكان ذلك برهاناً زاد اعتقادها فيهما وداعيا قويا حرك فيها عوامل السخط فأخذت تقدح من عينيها شررا وتلفظ من فيها كلمات كلها مقت وغضب وحاولت الخروج إلا أنها كانت تود أن تقف على حقيقة أمر الغريب فخففت من حدتها قليلا وانتظرت . . . . . ثم ابتدرته قائلة « اذا لم يكن هذا الرجل كما أعتقد فمن يكون ؟ »

هذا ما أردت أن أوقفك علي حقيقته من بادىء الامر فاعلمى أنى عند ماوصلت الى المعبد فى رجوعى من القرية رأيت هذا الرجل جالسا بين طبقات الجليد المتجمدة لأنوب يكسيه ولا دثار يدفع عنه غائلة البرد فأشفقت عليه ودثرته كما ترين ثم آويته الى هنا ولولم يرسلنى الله اليه فى تلك الآونة لربما قضى نحبه لوقته . فخففى من وطأة حدتك واعلمى أنها خطيئة كبيرة يامترو ينا وتذكرى أننا سنموت جميعاً يوما من الايام » فتمتمت ما ترو ينا ببعض كلمات يشتم منها رائحة الغضب والقت نظرة على الغريب وظلت صامتة

— « ماترو ينا ! ألاتوجد فى قلبك عاطفة المحبة — محبة الله »

وما سمعت هذه الكلمات من زوجها حتى نظرت الى ذلك الضيف الغريب ثانية فشعرت بعاطفة الرحمة نحوه وقامت لوقتها وأحضرت البقية الباقية مما عندها من الطعام وقدمته لذلك المسكين الذى دفع ثمنه نظرة فاترة وابتسامة لطيفة عبرت عما فى نفسه من الشكر والثناء . وبعد الانتهاء من اكله أخذت ماترو بينا تعيد الى مسامعه نفس الاسئلة التى سأله اياها زوجها من قبل فأجابها بمثل ماأجاب زوجها وختم اجابته بقوله: «ان زوجك دفئنى وآوانى وأنت أسقيتنى وأطعمتنى فالله يؤتيكما خيرا » ثم باتا وأصبحا فسأله سيمون « ماالذى تمكنك أن تباشره من الاعمال ؟ » فأجابه « ليس بيدى صنعة ما » فاستمر سيمون فى كلامه « إن من يريد ان يتعلم فليس من الصعب عليه ذلك » فأجابه « سأتعلم » فبدأ سيمون يعلمه كل يوم درسا من صناعته وكان ميكائيل (١) سريع البديهة فما مر ثلاثة أيام ألا وكان يباشر العمل كأنه به منذ سنين عديدة . وبعد الانتهاء من شغله كان يجلس وعيناه للسماء لا يتكلم إلا عند الحاجة ولا يميل قط الى المجون والمزاح، قليل الابتسام، فلم يروه يبتسم الا مرة واحدة : عند ماقدمت اليه ماترو بينا العشاء فى أول ليلة من ليالى حياته الجديدة !

كرت الايام ومرت الاعوام وميكائيل يثابر على العمل، مواصلا

---

(١) اسم الغريب

ليله بنهاره حتى ذاع صيته وعلت شهرته بين القرى والربوع المجاورة . وفى ذات يوم بينما هم جالسون فى كوخهم واذا بعربة يجرها ثلاثة من الصافنات الجياد تنهب الارض نهبا وتتقدم نحو كوخهم الحقير وما هى الا بضع ثوان حتى رأوا العربة قد وقفت امام الكوخ وقفز منها سيد تلوح عليه أمارات الشرف ومخايل النبل ضخم الجسم أحمر الوجه طويل القامة . فقام سيمون لوقته وفتح باب كوخه على سعته ثم وقف محييا ذلك الزائر العظيم منحنيا أمامه بكل تؤدة واحترام فقال السيد بكبر « من رئيس العمل فى هذا الكوخ » فأجابه سيمون « أنا ياصاحب العظمة » ثم أمر الشريف خادمه أن يحضر الجلد فأتى به ووضعه على خوان فى وسط الكوخ وبعدئذ وجه السيد كلامه الى سيمون قائلا : « ألا ترى هذا الجلد » فأجاب : « نعم ياصاحب الشرف إنه فى غاية الجودة » فقال الشريف بحدة « ياك من أبله أحمق ! أو تشك فى ذلك ؟ إنه ذو قيمة عالية وأريد أن تصنع لى منه حذاء على شرط أن يمكث حولا كاملا حافظا لرونقه وشكله . أتقدر ؟ فاضطرب سيمون قائلا « نعم يمكننى ياصاحب النبل » فصاح فى وجهه ذلك السيد « يمكنك ! تدبر . يجب أن تعلم لمن ستصنع الحذاء فان لم يكن كما أمرت سأودعك غيابة السجن ! » فانتفض سيمون فرقا وخوفا وتلعثم لسانه وهمس الى ميكائيل يطلب مساعدته فى ذلك المأزق فأومأ اليه

برأسه علامة للرضاء فقبل سيمون العمل . ثم همّ الشريف بالانصراف فودعه سيمون بمثل ماقابله به من التجلة والاحترام . ومما يجدر بالذكر مالاحظه سيمون أثناء وجود الشريف بالكوخ من أن وجه ميكائيل كان يتهلل بشرا وعينيه تتطلعان الى ماوراء السيد شاخصتان الى تلك الجهة كأن امامه شبح أوطيف خيال، فكان ذلك موضع دهشة سيمون وعجب ماترونا !

ثم قال سيمون لصديقه: « هيا ابدأ فى العمل أيها الصديق وحذار من الوقوع فى الخطأ فان السيد كما رأيت سريع الغضب » فبدأ ميكائيل فى صنع الحذاء ولكنه أدهش بعمله ماترونا اذرأته يهيىء الجلد ويخيطه لاعلى شكل باقى الاحذية ولكنه على شكل خفاف رقيقة فأسرت ذلك لزوجها الذى ماكاد يراه حتى استولى عليه الذهول وابتدره قائلا « ماذا تصنع أيها الرفيق ! أنت يامن مكثت معى حولا كاملا بدون أن تزل او تخطئ أتقترف فى دقيقة واحدة أعظم الاغلاط . . . » وأراد أن يستمر فى تأنيبه واذا به يسمع وقع حوافر جواد فصمت ورأى القادم فاذا هو خادم السيد يقول: « عموا صباحا أيها الرفاق. إنى أتيت لاجل الحذاء » فدهش سيمون وقال « نعم الحذاء ! فان سيدى ماكاد يفارقكم حتى فارقته الحياة وأخرجناه من العربة جثة هامدة والآن فقد أرسلت لاعلمكم أن تصنعوا هذا الجلد خفافاً للسيدة » فبهت

سيمون ثم تهلل وجهه وأقبل على ميكائيل يقبله فرحا مسرورا ، ثم أعطيا الخفاف للخادم فانصرف

مر العام إثر العام وميكائيل عائش الآن فى السنة السادسة من حياته الجديدة لاينطق الا عند الضرورة ولم تعل شفتيه الا بتسامة الامرتين فى خلال هذه المدة الطويلة . وفى ذات يوم بينما هم قعود يشتغلون كل فى عمله واذا باحد أولاد سيمون صرخ مخاطبا ميكائيل « عمـاه : هيا انظر فان امرأة معها طفلتان مقبلة نحونا » فنظر ميكائيل من أحـدى شرفات الكوخ فرأى سيدة معتدلة القوام حسنة الهندام يرافقها طفلتان تتقدم نحو الكوخ .

دخلت السيدة ففام سيمون مستقبلا اياها ومرحبا بها ثم سألها الجلوس ففعلت وقال لها « إن السرور ليشملنى اذا أمكننى القيام بما تأمرينى به » فأمرت بعمل حذاءين للطفلتين فأجابها سيمون الى طلبها . وفى تلك الآونة نظر سيمون الى ميكائيل فرأى عينيه محدقتين بالطفلتين لايحول عنهما نظره كأنه يعرفهما من قبل فدهش ولكنه لزم الصمت .

ثم ابتدأت ماترونا تسأل تلك السيدة قائلة : « يظهر أن ابنتيك توأمتان » فأجابتها « أجـل انهما لكذلك ولكنهما ليستا طفلتى ولا يربطنى بهما رباط صلة أو قرابة » فتعجبت ماترونا وقالت « عجبا ! انهما ليستا طفلتيك ثم مع ذلك تشفقين عليهما هذه الشفقة وتظليهما

باجنحة عطفك وحنانك ! » فقالت السيدة « وكيف لا أشفق عليهما وقد أرضعتهما من ثديي » ثم استمرت المرأة في الحديث وأخذت تسرد مجمل حكاية هاتين الطفلتين فقالت : « لقد اختطف المنون روح والديهما منذ ست سنين في أسبوع واحد فأودع الاب الرمس يوم الثلاثاء وعلى أثره بثلاثة أيام فاضت روح تلك الام وانتقلت الى دار الخلود . أما هاتان الطفلتان فقد ولدتا يوم الخميس الموافق لليوم الثالث من موت والدهما ولليوم الاول من ايام الاسبوع الذي تركتهما فيه امهما وديعة عند رب العالمين . مسكينة امهما ! فقد كانت فقيرة وحيدة ليس لها في الحياة من يأخذ بناصرها ويقاسمها عزلتها وشقاءها . ومن ذلك اليوم — يوم الخميس — اصبحت هاتان الطفلتان اليتيمتان غريبتين عن العالم اجمع لا تربطهما باهله أواصر الصلة او القرابة .

لقد كنت أنا وزوجي مقيمين في ذلك الحين في القرية وكانت تربطنا بوالدي الطفلتين رابطة الجوار وقد ذهبت لازور تلك المسكينة في صباح أحد الايام فما كدت أخطو بضع خطوات حتى وجمت ذعرا وهالني ما رأيت ! نعم انها لساعة رهيبة مخيفة ! رأيت الام ملقاة على الارض فدنوت منها فاذا هي جثة هامدة تعلو وجهها صفرة الموت وحولها طفلتان في المهد تصيحان وتعولان كانهما علمتا برزئهما فاخذتا تناديان امهما النداء الاخير وتسمعانها صوت

يكائهما قبل فراقها الابدى . . . وهكذا فى ساعة ولدتهما وفى ساعة فقداها .

بعد ذلك انتشر الخبر فتقاطر القرويون الى ذلك الكوخ المشؤوم وعنوا بجثة الفقيرة ووضعوها فى الكفن ثم واروها التراب وعيونهم دامعة وقلوبهم يدميها الحزن والاسى — انهم لقوم محسنون .

لم يكن للطفلتين نصير كما ذكرت فتكفلت بهما وتعهدت بتربيتهما ولم يكن لى فى الحياة سوى طفل صغير اغتبطه الموت فكم كنت أشعر بالوحدة اذا لم يكن هاتان الطفلتان بجانبى وكم يزداد حبى لهما فهما زهرة حياتى ونضرتها »

وبعد أن انتهت من حديثها ضمت اليها بيمينها احدى الطفلتين ومسحت بيسارها عبراتها المنسجمة فتنهدت ما ترويتا وقالت حقاً لقد صدق المثل القائل: «إن الانسان يمكنه أن يعيش بلا أب أو ام ولكنه لا يمكنه ذلك بدون رحمة الله »

ثم ساد السكوت وانبثق نور وضاء من الركن الذى كان فيه ميكائيل وأنار كانه ضوء الشمس القوى فى الصيف فنظروا اليه فاذا هو جالس ويداه على منكبيه وعيناه تتطلعان الى السماء ووجهه يتلألأ وثغره يبتسم .

ما ذهبت المرأة بطفلتيها حتى قام ميكائيل وانحنى أمام سيمون

وقال « الوداع : الوداع : فلقد غفر لى ربى ولم يبق الا أن اسألك عفوك ان كنت هفوت أو أذنبت » ثم تلألأ غرته وعلا وجهه غطاء نورى فانحنى أمامه سيمون قائلا عفواً يا ميكائيل فانك لست بشراً سوياً وانا ليس فى قدرتى أن ارغمك على القيام عندى أو أتجاسر ان اسألك أكثر مما أريد أن تجيبنى عنه الآن انك ابتسمت ثلاث ابتسامات فاشرق النور من محياك فخبرنى ايها الصديق عن سر ذلك الابتسام ومبعث هذا النور الوهاج فاجاب ميكائيل : إن الله أرسانى لأتعلم ثلاث حقائق وقد أتممتها فابتساماتى الثلاث مظاهر الفرح الذى ملأ قلبى . أما النور فينبعث منى لان الله غفر ذنبى وسامحنى فقال سيمون : ولم عاقبك الله؟ وما هى تلك الحقائق التى بعثت لمعرفتها فاجابه انى كنت ملكا فى السماء فخالفت أمر ربى اذ ارسلنى لاقبض روح امرأة من عباده فهبطت الى الارض واذا بى أراها مسكينة هزيلة قد وضعت لوقتها توأمتين فلما رأتنى فقهت كنه حقيقتى وعرفت أنى أتيت فى طلب روحها فأجهشت بالبكاء وبصوت تقطعه الغصات العميقة توسلت قائلة : « أيها الملاك الطاهر رفقا بامرأة ضعيفة كسيرة القلب قتل زوجها وحرمت من كل نصير لها فى الحياة . أنا غريبة عن العالم أجمع فأمهانى ريثما تترعرع هاتان اليتيمتان وبعدها أموت راضية مطمئنة . بربك لا تعجل ساعة يتمهما فحياة الطفل بأمه » فرجعت الى ربى وبلغته رسالتها

فأمرني أن أهبط ثانية واستل روحها . وبعد أن أديت ماأمرت به أردت الصعود واذا باجنحتي تسقط وريح شديدة تصدني فوقعت بجانب الطريق . فعلم سيمون وما تروينا حقيقة هذا المخلوق الذي شلاه بعطفهما وحنانهما طول هذه المدة ثم بكيا روعة وجلالا. اما الملك فأخذ يقص قصته قال : « لقد هبطت الى الارض وانا لااعرف مايعترى الانسان من حر وبرد فكدت اموت جوعا وكادت اعضائي تصير قطعة من الجليد ولكني لم أدر ماذا افعل ؟ ذهبت الى المعبد لآوي اليه فوجدته موصداً فجلست بجانبه واتكأت على جدرانه اتقاء من العاصفة الشديدة وبينا انا كذلك أشعر بألم الجوع والبرد اذ مر على اول مخلوق ارضي وقعت عليه عيني منذ صرت رجلا أشعر واتألم . تمثلت امامي صورته فرأيت فيها قبح النظر متجسما وظننت ان الله لم يخلق افظع منه شكلا فحولت بصري عنه . واما الرجل فما كاد يراني حتى استولى عليه الرعب وسار من طريق آخر حتى لايمر بي فملأ اليأس قلبي ولكني مالبثت أن رأيته راجعا نحوي ونظراته تنم عن حب كامن وعطف مستتر فدثرني بثيابه وآواني الى منزله حيث قابلتنا زوجته وعيناها تقدحان شررا وغضبا ولكنها مالبثت ان خففت من حدتها وعطفت علي فقدمت لي الطعام وكؤوس الشراب واذ ذاك اتممت الدرس الأول من دروسي وتعلمت احدى الحقائق الثلاث وهي :

ماذا يكمن فى الانسان : فعلمت أنها **الرحمة** وحدها .

جاء السيد بعد ذلك بعام واحد فمر بعمل حذاء لايبلى قبل مرور حول كامل ورأيت وراءه رفيقي ملك الموت فعلمت أن الشمس لا تغرب حتى تغرب حياة ذلك السيد واذ ذاك وقفت على سر الحقيقة الثانية وهى : **ماالذى لم يحط به الانسان علما** فعلمت أنها **ماهيات نفس** وهنا ابتسمت ابتسامتى الثانية إذ لم يبق امامى الا الدرس الاخير وليس بينى و بين ملكوت السموات إلا فرج الله النهائى . ظللت عائشا معكم انتظر مشيئة الله الى أن أتت التوأمتان فعرفت الطفلتين ولما سمعت كيف عاشا الى هذا الوقت و تذكرت قول أمهما « أن الطفل لايعيش بدون رحمة أمه وعطفها عليه » تحققت بطلان هذه الدعوى ولما تساقطت الدموع من عينى تلك المرأة ـ دموع الرأفة والرحمة — وضمتهما الى صدرها الممتلىء عطفا وحنانا عرفت أن فى قلبها عاطفة سامية هى عاطفة **الرحمة** التى هى سر الحقيقة الاخيرة وهى : **بم يعيش الناس**

أنى لم أظل حيا لانى أخذت الحيطة لنفسى بل لان الله قيض لى انسانا منحنى بعض مافى نفسه من (الرحمة) فشملانى هو وزوجه بعطفهما وحنانهما . كذلك اليتيمتان بقيتا تستنشقان نسمات الحياة الى هذا الوقت لاباعتناء امهما ولكن لأن عاطفة

الرحمة تحركت فى قلب امرأة غريبة عنهما فعنت بامرهما وبكت من أجلهما. فالعالم كله والناس أجمعون لا يعيشون فى هذا الكون بمحض تدبيرهم وارادتهم وبما يعملون لحفظ كيانهم فحسب ولكنهم يعيشون بعاطفة الرحمة التى أودعها الله فى الانسان فهى التى تحفظ فيهم حرارة الحياة .

« إن من يرحم فقد تقرب الى الله لانه هو الذى خلق فيه الرحمة »

وبعد أن أتم ميكائيل قوله غنى أنشودة إلهية فاضطرب الكوخ وخر سيمون وأهله مغشياً عليهم ، ثم فتح السقف من فوقهم وظهرت الاجنحة على ذراعي الملك ثم صعد عمود من الدخان الى السماء وهكذا ارتفع الملك الى عرش ربه . ولما ثاب سيمون الى رشده وجد كوخه كما كان والتفت يمنة ويسرة فلم ير الا سرته الاولى .

الحكاية الثانية

« كم هو نصيب الانسان من الارض »

جانب الهوى فالهوى طمع
ذل من طمع عز من قنع (١)

نهبط بالقارىء الكريم الى قرية صغيرة من قرى بلاد الروس وندخل به احدى اكواخها حيث يرى سيدتين جالستين على مائدة واحدة تتناولان الشاى وتتسامران . احدى هاتين السيدتين وهى الكبرى حضرية يشتغل زوجها بالتجارة وقد جاءت لتقضى بضعة أيام مع شقيقتها القروية الجالسة امامها، وبينما هما فى مسامرات لطيفه وحديث شهى أدى بهما الكلام إلى المقارنة بين معيشة اهل الريف ومعيشة اهل المدن فاندفعت الحضرية تبين لشقيقتها نضارة الحياة فى المدن وما فيها من الترف والنعيم فى المأكل والملبس والمسكن ثم عددت لها صنوف الملاهى وضروب الرفاهة التى يتنعمون بها، وتدرجت الى وصف اماكن اللهو ودور التمثيل والحدائق والمنتزهات العامة التي يغشونها رياضة للنفس وترويحاً للخاطر . كل ذلك وشقيقتها القروية ساكتة لا تبدى ولا تعيد . لان تلك كانت قد افحمتها بذلاقة لسانها، الا انها تمكنت اخيراً من تغيير مجرى الحديث قائلة :

---

(١) من كتاب (مطلوب كل طالب) نظم حضرة الشاعر المطبوع محمود افندى الجبالى . والكتاب قيد الطبع

انا قانعة بمعيشتي هذه البسيطة ولو خيرت بينها و بين معيشتكم لما فضلت سوى ما نحن فيه من بساطة ملؤها السعادة والهناء، لا مراء في ان دخلكم أوفر من دخلنا الا ان طراز معيشتكم يتطلب نفقات كثيرة قد تربو على الدخل ولا يخفى ما في ذلك من سوء العاقبة . فكم من عائلات غنية كانت بالامس ترفل في حلل الرفاهة والنعيم اصبحت اليوم بلا مأوى تسأل الناس قوت يومها فلا تجده . اما نحن القرويين فقل ان يوجد بيننا من يعيش عيشة اهل الثراء ولكننا لا نعدم قوت يومنا على أي حال. فاجابتها الكبرى وقد امتلأت غيظاً :

— كفى يا عزيزتي يحق لك ان تقولي ذلك طالما تجدين لذة بمساكنة العجول والخنازير. ما ابعدكم عن محجة اللطف والكمال أيها القرويون! بل ما ابعدكم عن معرفة ما فيه صلاح معاشكم ومعادكم انكم تجهدون انفسكم صغاراً وكباراً، دائبين في العمل ليلا ونهاراً، صيفاً وشتاء، ثم تموتون كما عشتم فقراء لا تورثون اولادكم سوى النصب والشقاء .

فأجابتها الصغرى :

— حقاً ان ما نحن فيه من العيش جاف والعمل عندنا شاق إلا أنه لم تتسرب الى ربوعنا مفاسد المدنية ورذائلها بعد وأخلاقنا على سذاجتها خالية من شوائب الاهواء النفسانية ولذا

نعيش ما عشنا فى هدوء وسلام . ولكن أنتم فى مدنكم تعيشون فى جو محاط بالمكر والرياء، لا تأمن الزوجة فيه على بعلها ولا يطمئن الرجل لزوجته . إذا بتم ليلة على وفاق لا تلبثون أن تصبحوا على شقاق . قد يأتى يوم على زوجك فتستغويه احدى الغانيات ـ وما أكثرهن فى المدن ـ فتفقدين اذ ذاك هناءك العائلى ونعيمك المنزلى ، أو يوسوس له الشيطان بعاقرة بنت الحان فيصبح من مدمنيها فيضل سواء السبيل ، أو يسوقه الطمع الى موائد القمار وهناك البلية والدمار .

ثم غيرت المرأتان مجرى الحديث وخاضتا فى حديث آخر خاص بالازياء وكانتا قد أنمتا تناول الشاى فقامتا تستعدان للنوم اذ كان النعاس قد أثقل أجفانهما .

أما رب المنزل (پاهوم) فكان جالساً على الموقدة يسمع حوار المرأتين طوال تلك المدة ثم ناجى نفسه قائلا : « حقا إن شقيقة زوجتى على حق فى بعض ماتقول ، فاننا القرويين نعيش ماعشنا فى تعب ونصب ثم يموت الواحد منا كما عاش دون أن يجنى أقل ثمرة من عمله . آه لو كنت أملك قطعة صغيرة من الارض لكنت الآن هنىء البال قرير العين لا أخاف حتى رئيس الاباسة ». فسمع حديث نفسه ابليس وكان على مقربة منه فابتسم ضاحكا وقد عزم أن ينيله بغيته ثم يورده موارد الهلكة من حيث أطمعه .

وكان بينهما بعد ذلك من الحوادث ماسوف تقرأ خبره فى الفصول التالية .

*****

أصبح باهوم والطمع يقيمه ويقعده ولاهم له الا امتلاك أرض يصبح فيها صاحب الكلمة المطلقة يأمر وينهى كما يريد . وكان بالقرب من الارض التى يزرع فيها حبوبه قطعة فسيحة من الارض لسيدة من ذوات الاملاك ، طيبة القلب لينة العريكة ، اعتادت أن تعامل جيرانها باللطف والانسانية ، الا انه عرض لها أمر ذو بال ألهاها عن تعهد الارض بنفسها فوكلت أمر زرعها واستغلالها لوكيل أشغالها الذى كان على جانب عظيم من الخشونة وقساوة الطبع فأخذ يذيق ضعاف القرويين جيرانه مر العذاب ويثقل كاهلهم بالغرامات التى كان يفرضها عليهم من حين لآخر . وقد حرص باهوم كل الحرص على منع أسباب التحكك بجاره الغليظ الطبع ولكن رغم ما كان يبذله من الاحتياط والتحرز كانت بعض ماشيته تتسرب الى المزرعة ، فيقع بينه وبين الوكيل أخذ ورد ينتهى فى الغالب بغرامة يتحملها المسكين طائعا صاغرا .

أقبل الشتاء ببرده القارس وابيضت ذوائب الجبال وانكمشت الماشية فى زرائبها فارتاح بال (باهوم) وعاش آمناً فى سربه طول فترة الشتاء ، ثم شاع فى القرية أن السيدة صاحبة المزرعة عزمت على

بيع ارضها صفقة واحدة وتلا هذه الاشاعة خبر مؤداه أن صاحب الفندق القائم على الطريق العالية يساومها فى شراء المزرعة، فذعر أهل القرية لهذا الخبر وتوجسوا منه خيفة، لأن صاحب النزل كان أغلظ طبعاً من وكيل السيدة فجمعوا جموعهم وتشاوروا فى الأمر، فقر رأيهم على تأليف لجنة تقوم بشراء الارض. فتألفت اللجنة وأرسلت من قبلها وفداً الى السيدة المالكة لشرائها، فقبلت السيدة ولم تمانع، الا أن الشيطان أوغر صدور بعضهم على بعض فتخاذلوا وفشلوا فى مهمتهم وأخيراً عزموا على شراء المزرعة قطعاً بدل شرائها صفقة واحدة، وأن يساوم كل منهم سيدة الارض فى القطعة التى يروم ابتياعها . جرى كل ذلك وياهوم ساكت لايحرك ساكناً ينظر والهاً الى المزرعة وهى تباع قطعة قطعة الى أن كان ذات يوم وقد سمع أن أحد جيرانه ابتاع من السيدة قطعة من المزرعة تبلغ الخمسين فدانا وقد دفع نصف ثمنها نقداً وتعهد بدفع الباقى اقساطاً لمدة سنة، فناجى نفسه يقول: «الى متى أظل ساكناً والارض تباع» ثم حدث امرأته بآماله وقد خاطبها قائلا :

الا ترين كيف أن أهل القرية يتهافتون على شراء المزرعة ونحن هنا لا نحرك ساكناً ؟ كلا ان هذا لا يطاق يجب ان نسعى فى شراء قطعة من الارض ولو عشرين فدانا على الاقل سيما وأن الحياة أصبحت عبئاً ثقيلا بمضايقة هذا الفظ وكيل السيدة .

ثم فكرا كثيرا فى الامر وتصفحا كل وجوه الرأى وأخيراً قر رأيهما على الشراء ولم يكن عند پاهوم سوى بضع عشرات من الروبلات فباع مهرة كانت عنده وباع كذلك نصف مالديه من خلايا النحل وبعض اثاث المنزل وأجر اثنين من أولاده فى احدى المزارع لمدة عام، وأخذ أجرتهما مقدماً، ثم اقترض الباقي من احد انسبائه فتوفر لديه جملة من المال يمكنه بها شراء قطعة صالحة من الارض . فذهب الى السيدة وساومها فى قطعة من الارض تبلغ الاربعين فداناً وفيها أجمة صغيرة . واتفق معها على دفع نصف الثمن فوراً وتعهد بدفع الباقى اقساطاً على سنتين وحرر على نفسه وثيقة بالمبلغ .

تمت المبايعة وسجلت بمحكمة البلدة ووضع پاهوم يده على الارض. ثم مضى العام وكان المحصول جيداً فوفى ما عليه من الديون وبذا أصبح يملك قطعة من الارض يجول النظر فيها على بقاع فسحة شتى الالوان كثيرة النماء ، وكان كلما مر بأرضه الجديدة رقص قلبه طرباً ونظر اليها بغير العين التي كان ينظر اليها من قبل . فعاش ردحاً من الزمن لا يعكر صفو حياته الا تسرب مواشي الجيران الى الحقل من حين لآخر . فلولا هذا المعكر لكان هناؤه أتم الا انه احتمل ذلك فى مبدأ الامر واكتفى بتحذير أصحاب المواشي، غير أن ذلك التحذير لم يجد نفعاً، فعمد الى التقاضي وأدى به الأمر الى

مشاكل عديدة أحفظت عليه صدور أهل القرية ، فأخذوا يعادونه سراً وجهراً ويطلقون مواشيهم ترتع فى مراعيه عمداً بعد أن كانت تتسرب من نفسها على غير قصد . ثم هموا مراراً باحراق مسكنه وايصال الاذى اليه بطرق مختلفة مما أدى الى شدة البغضاء واتساع خرق العداء وبذا فقد هناءه القديم وأصبح مشغول البال لا يغمض له جفن ولا يهنأ له عيش

وشاع فى ذلك الوقت أن هناك أراض زراعية جديدة عرضتها الحكومة للاستثمار وأن الناس من جميع القرى يهاجرون الى تلك الاراضى . ففكر باهوم فى نفسه وقال : «فليها حر من أراد من أهل القرية أما أنا فلا أبرح مكانى وسوف أنتهز هذه الفرصة لتوسيع ممتلكاتى فاشترى بعض الاراضى التى يتركها اصحابها »

وبينما كان باهوم يمنى النفس بهذه الآمال اذ نزل بضيافته قروى كان ماراً بعزبته فاكرم باهوم مثواه فسأله أين كان فاخبره القروى انه كان يشتغل فى جهات (الفولجا) حيث الاراضى التى كانت تستعمر حديثاً هناك وافضى به الحديث الى وصفها والاطناب فى خصوبتها وجودتها زاعماً أن الشيلم الذى يزرع فى تلك الاراضى ينمو حتى يصير طوله اعلى من قامة الفرس ثم أتم حديثه قائلا : إن اولياء الامور هناك يتبرعون بخمس وعشرين فداناً لكل من أراد استثمار تلك الارض الخصبة وان رجلا من اهل قرية

باهوم حضر تلك الجهات صفر اليدين خالي الوفاض فاصبح الآن يملك ستة خيول ورأسين من البقر .

فقال باهوم في نفسه « ماالذي يمنعني من هجر هذه البقعة الضيقة الى تلك البقاع الفسيحة حيث الربح الوافر والثراء العاجل وانى لاكون من الحمق اذا لم انتهز هذه الفرصة السانحة ولكن على أن اتحقق الامر بنفسي أولا »

كان الوقت شتاء فقعد ينتظر اوائل الصيف حتى اذا حل الربيع كان قد اتم معدات السفر فركب زورقا بخارياً أقله حتى سمارا ومن ثم قطع ثلثماية ميل على اقدامه حتى وصل المكان المقصود فوجد الارض كما وصفها القروى وعلم أن الفلاح المستثمر يعطى قطعة لا تقل مساحتها عن خمسه وعشرين فداناً وان هناك اراضى اخرى معروضة للبيع قيمة الفدان منها لا يزيد عن ثلاث روابل ففرح باهوم بهذا الاستكشاف وقفل راجعاً الى قريته بعد أن تحقق صدق الخبر وما وصل اليها حتى شرع فى بيع ممتلكاته وتهيئة ما يلزم للهاجرة هو وافراد العائلة.

وفى اوائل فصل الربيع سافر الى مقره الجديد وحط الرحال فى قرية كبيرة من قرى تلك الاراضى وكان حظه منها هو اولاده خمسة انصبة بلغ مجموعها ١٢٥ فداناً فى جهات متفرقة من القرية التى استوطنها اى اضعاف ما كان يملكه فى قريته الاولى فاصبح لديه

حقل واسع ومرعى فسيح ترتع فيه كثير من الماشية . ثم مضت ايام اشتغل اثناءها باهوم بتخطيط المزرعة وبناء العزبة وشراء الدواب اللازمة للعمل ولذا كان فى مبدأ هجرته قانعاً بحياته الجديدة فرحا بما رزقه الله الا انه ما كاد يتم ما شرع فيه حتى تسلط عليه الطمع ثانياً فصار ينظر الى ارضه الجديدة بعين الاستصغار .

زرع فى عامه الأول قمحاً فكان المحصول جيداً فطمع فى الزيادة غير أن الارض لم تسعفه بطلبته لانها كانت تتفاوت فى الخصوبة فلا تصلح جميعها لزراعة القمح فعول على ايجار اراض اخرى تصلح لذلك ففعل الا ان ذلك لم يرق فى عينه ايضاً فكان يشكو من بعد الارض وصعوبة النقل ففكر فى نفسه قائلا : لو كنت اشترى قطعة مستقلة خارجة عن نطاق المشروع فابنى عليها ضيعة صغيرة لكان لى من وراء ذلك فوائد جمة » وكانت هذه الفكرة ماثلة بذهنه يفكر بها من حين لآخر . ثم سار على هذه الوتيرة وهو يستأجر أرضاً ويزرعها قمحاً مدة ثلاثة أعوام وكان الدهر مواتياً له فربح ارباحا وفيرة لجودة المحصول الا أن ذلك كله ما كان ليقلل من طمعه بل كان يزداد تذمراً كلما فكر فى المال الذى يصرفه للمؤاجر . واتفق أن أجر فى العام الثالث قطعة من الارض من بعض القرويين هو وأحد التجار ثم وقع بينهما وبين أصحاب الارض منازعات أدت الى التقاضي وأسفرت عن خسارتهما

فتذمر باهوم وقال فى نفسه « كل ذلك ما كان ليقع لو أن الارض كانت لى خاصة »

ومن ذلك الحين أخذ يبحث عن قطعة أرض للشراء فأوقعته المقادير فى قطعة صالحة أراد صاحبها أن يبيعها عاجلا تخلصاً من عسر أحاق به وكانت الارض تبلغ مساحتها ١٣٠٠ فداناً فصلها باهوم بمبلغ ١٥٠٠ روبل يدفع نصف ثمنها فوراً ويكتب على نفسه وثيقة بالباقى . وقبل أن يتم البيع بأيام مر عليه بعض التجار وطلب منه علفاً لفرسه، فاحتفى به باهوم ودعاه الى تناول الشاى معاً وجلسا يتحدثان، فسأله باهوم من أين هو آت فأخبره انه آت من أرض بعيدة تابعة لقبائل البشكير حيث اشترى لنفسه هناك ثلاثة عشر آلاف فداناً من الارض بمبلغ لايزيد عن الف روبل فدهش باهوم واستزاده الخبر فقال الرجل « وما على المرء الا أن يتودد الى الرؤساء بهدايا فيمنحونه كل مايطلب . وقد اشتريت لهم ملبوساً وسجادة وعلبة من الشاى وبعض النبيذ وهدايا أخرى كلفنى مجموعها نحو مائة روبل وبهذه الوسيلة أكرمنى الرئيس بأن تنازل عن ثمانية كوبكات فى ثمن الفدان الواحد » قال ذلك وأخرج صك المبايعة يريه لباهوم وهو يقول : « ان موقع الارض قريب من النهر ومما يزيدها أهمية انها بكر لم تستغل بعد » فافتتن باهوم باقوال الرجل ولم يتمالك عن استزادته الحديث

والالحاف عليه بالسؤال فأجابه الرجل « ان هؤلاء القوم يملكون من الارض مالا يقع تحت حصر ولاعد وهم على جانب عظيم من السذاجة وبلادة الطبع ليس للارض عندهم أدنى قيمة » فأطبق خاتم الحرص على قلب ياهوم وناجى نفسه قائلا « أنا الآن أملك ألف روبل فأى شيء يجبرنى على شراء قطعة من الارض مساحتها ١٣٠٠ فداناً بينما يمكننى شراء عشرة أضعاف هذا المقدار بنفس المبلغ دون أن أثقل كاهلى بالدين »

ولم يتردد ياهوم فى الامر لحظة واحدة بل ما كاد الرجل يفارق الضيعة حتى كان هو وخادمه على الطريق الموصلة الى قبائل البشكير ليتحقق الامر بنفسه وبعد مسيرة بضع ساعات حط رحاله فى احدى القرى ليشترى صندوقاً من الشاى وبعض النبيذ وهدايا أخرى كما أوصاه الرجل ، ثم واصل سيره حتى انتهى الى مكان القبيلة بعد أن قطع مسافة لا تقل عن ثلثمائة ميل . فوجد الامر كما وصفه الرجل ورأى أن القوم يسكنون الخيام بالقرب من مراع فسيحة يخترقها نهر عظيم وجل معيشتهم على اللحوم ومستخرجات الالبان ولا يعنون بزراعة الارض وغرسها مطلقاً ، والنساء هن اللواتى يقمن بكل الاعمال . أما الرجال فلا هم لهم الا الأكل وشرب الشاى والضرب على القيثارة وكلهم أقوياء البنية صحاح الاجسام يقضون فصل الصيف باللهو واللعب ولا يباشرون فيه أى

عمل من الاعمال وهم على درجة عظيمة من السذاجة وبلادة الطبع ولا يعلمون من الروسية حرفاً واحداً وانما يتكلمون بلغة خاصة بهم، ومن عاداتهم الجميلة، اكرام وفادة الغريب، اذما كاد يقع نظرهم على باهوم حتى خرجوا من خيامهم والتفوا حوله صغاراً وكباراً يتأملون وجهه وكان بينهم رجل يتكلم بالروسية فتوسط بينه وبين قومه وسأله عن قصده فأخبره باهوم انه جاء ليصيب عندهم بعض الارض ففرحوا بذلك وأخذوا بيده الى احدى الخيام الكبيرة حيث أجلسوه على وسادة وثيرة وقدموا له أعز مالديهم من المأكل والمشرب وبعد الانتهاء من الطعام قام باهوم الى عربته وأخرج ما كان لديه من الهدايا ووزعها عليهم بالتساوى فارتسمت على وجوههم أمارات البشر والسرور، وأخذوا يتكلمون فيما بينهم مدة طويلة وأخيراً أشركوا الترجمان فى الحديث فالتفت هذا الى باهوم وقال له : قد سر القوم من هديتك أيما سرور وهم يشكرونك كثيراً على هذا الصنيع ومن عادتهم اكرام الضيف بكل مافى وسعهم فاطلب ماتريده منهم لقاء هديتك فانهم لا يتأخرون لحظة واحدة عن اسعافك بمرغوبك » فأجابه باهوم: « جل رغبتى هو أن أصيب عندكم قطعة من الارض لزرعها واستثمارها لان الارض عندكم خصبة للغاية » فأخبرهم الترجمان بما يقول فعادوا الى حديثهم ثانياً وكان باهوم يجهل لغة القوم وانما رآهم يبتسمون

ويضحكون ثم التفت اليه الترجمان قائلا : يقولون انهم سوف يعطونك بكل سرور قدر ماتطلب من الارض فما عليك الا أن تشير بيدك الى قطعة الارض التى تريدها لنفسك فتكون لك » وما كاد الرجل يتم حديثه حتى قامت ضجة بين القوم فسأل باهوم عن جلية الامر فأخبره الوسيط أن القوم قد انقسموا الى فريقين فريق منهم يريد ألا يبت فى الامر حتى يحضر الرئيس وآخرون يخالفونهم فى الرأى

وبيناهم فى جلبتهم وضوضائهم اذا برجل ضخم الجثة عريض الاكتاف يلبس قبعة كبيرة من فرو الذئاب قد دخل من باب الخيمة فوجم القوم وسكتوا كأنما على رؤسهم الطير وقد قاموا اجلالا لشأن القادم واكبارا لأمره فاخبره الترجمان ان القادم هو رئيس القوم فقام باهوم مسرعاً وأحضر له نصيبه من الهدية وهى خمسة أرطال من الشاى وبعض الثياب النفيسة فتقبلها الرئيس شاكراً وجلس فى صدر المكان والتف القوم حوله يحدثونه بشأن باهوم فاشار اليهم بالسكوت ثم التفت اليه يخاطبه بالروسية : «اخبرنى القوم بشأنك وما كنت لا رد لك طلباً فاختر القطعة التى ترضاها لنفسك فان لدينا كثيراً من الارض كما ترى » فقال باهوم فى نفسه «كيف اقبل منه ذلك بمجرد القول بلا قيد ولا شرط الا يجوز انهم يندمون فى المستقبل فيرجعوا ما وهبوا لى من الارض !!» ثم خاطب الرئيس

قائلا : « اقدم لكم جزيل الشكر على هذا الاكرام ولكن ألا يجدر بنا أن نستوثق الامر بحجة أو سند فان الاعمار بيد الله والمرء لا يأمل ان يخلد طول الدهر الا يجوز أن يأتى بعدكم خلف لا يرضى بعملكم فينازعنا فى الارض » فاجابه الرئيس : « انك محق فيما تقول وسوف يكون الامر كما تريد » فقال باهوم « بلغنى ان احد التجار اشترى منكم من عهد قريب قطعة من الارض وأخذ عليكم عقداً بالبيع وانا احب أن تعاملونى بمثل معاملته »

فاجابه الرئيس حباً وكرامة عند ما يتم الاتفاق نكتب عقداً بذلك ثم نسجله فى محكمة البلدة .

فسأله باهوم . « وكم يكون الثمن » : فأجابه الرئيس بقوله: « ان الثمن عندنا محدد لا يتغير فاننا نأخذ الف روبل عن اليوم (الكامل) فلم يفهم باهوم ماذا اراد بقوله اليوم الكامل فسأله مستفهماً . « ماذا تعنى باليوم الكامل وكم فدانا يكون » فأجاب الرئيس : . « نحن لا نستعمل المقاييس فى مسح الارض وانما نقدرها بالسير فيها يوماً كاملا وثمن الارض التى يقطعها المرء مشياً على أقدامه يوماً كاملا هو الف روبل » ففرح باهوم وصاح قائلا : ولكننى اقطع فى اليوم ارضاً كبيرة للغاية » فأجاب الرئيس « كل ما تسير على قدر جهدك يكون ملكا لك على شرط الرجوع قبل غروب الشمس فاذا غربت الشمس ولم ترجع تخسر جميع ماتدفعه من المال » فقال باهوم : « ولكن كيف السبيل الى معرفة الارض التى اقطعها ؟ » فأجابه قائلا :

— ان ذلك سهل ميسور عليك أن تختار لنفسك بقعة من الارض تسير منها . وعند كل ثنية من الارض تحفر حفرة صغيرة تجعل بجانبها كومة من التراب بفأس صغير يكون معك لهذا الغرض وعند الانتهاء نصل نحن تلك العلامات بحراثة دائر الأرض التى تقطعها فى اليوم ولك مطلق الحرية فى أن تسير فى الأرض كما تريد على شرط الرجوع قبل غروب الشمس .

فارتاح لذلك باهوم وتقرر أن يبدأ فى السير صباح ذلك اليوم ثم اكملوا يومهم فى الحديث والمنادمة حتى اذا اقبل الليل فرشوا له فراشاً وثيرا وتركوه فى الخيمة لينام فيها ليلته بعد أن وعده الرئيس بأن يوافيه صباحاً قبل بزوغ الشمس

— ٠ — ٠ —

رقد باهوم طول ليلته وهو يبنى لنفسه القصور والعلالى متقلباً على فراش الأمانى والأحلام دون أن يغمض له جفن أو يكتحل بنوم وقبيل الفجر أخذ التعب منه مأخذه وقد تغلب عليه النعاس فأخذته سنة من النوم ثم رأى فيما يراه النائم أن الرئيس اقبل عليه ينتظره على باب الخيمة فخرج اليه يسأله عن جلية الأمر فوجد أن القادم ليس الرئيس وإنما هو الرجل التاجر الذى أرشده الى أراضي البشكير فتقدم منه وقد هم أن يسأله متى حضر واذا به يرى فى وجهه صورة الرجل القروى الذى أقبل اليه فى قريته

الأولى من جهة القولجافهم أن يصافحه ويترحب به واذابه يرى فى وجهه صورة ابليس اللعين فى شكل بشع ومنظر مريع فأشاح بوجهه الى جهة أخرى فرأى جثة انسان ملقاة على مقربة منه فاقترب من الجثة ليتأمل وجه صاحبها ولكنه ما كاد يقترب منها بضع خطوات حتى ارتد مذعوراً لأنه رأى فيها صورة نفسه. ثم قام من نومه وهو على هذه الحالة ممتقع اللون ترتعد فرائصه فرقاً ونظر الى باب الخيمة فلم ير غير حمرة الشفق فعلم أن ستر الليل أوشك أن يتمزق فلا يمضى القليل حتى يسفر الصباح عن وجهه المنير فقام وهو يقول: « ما أكثر مايرى الانسان فى نومه لاشك ان مارأيته هو أضغاث أحلام. وهاقد قرب الصبح والقوم نيام بعد » ثم ذهب مسرعا نحو خادمه الذى كان نائماً فى العربة فأيقظه وأمره بالاستعداد ثم أسرع نحو القوم يوقظهم فصحا القوم واجتمعوا فى خيمته ولم يلبث ان وافاهم الرئيس وكانت الشمس قد قاربت البزوغ فامر باحضار طعام الافطار وعرض على باهوم تناول بعض الشاى فأبى قائلا: « لم يبق متسع من الوقت فلنبدأ بالعمل ان كنا فاعلين »

***

عند ذلك وقف القوم استعداداً للمسير ثم ركب بعضهم العربات وامتطى آخرون متون الجياد وركب باهوم عربته وسار فى طليعة القوم مع الرئيس وبعد أن ساروا قليلا وصلوا الى تل صغير يشرف

على سهل فسيح الأرجاء وكانت الشمس قد بدأت فى البزوغ فوقف القوم وتقدم الرئيس قائلا وقد أشار بيده الى السهل : « انظر كل هذا السهل الفسيح ملك لنا ولك أن تسير فيه أنى تشاء » وبعد أن قال ذلك خلع قبعته ووضعها على الارض قائلا : « فلتكن هذه القبعة علامة لمبدأ سيرك فابتدىء فى السير من هنا ثم ارجع اليها ثانية بعد أن تتم دورتك وكل الارض التى تمشى بها تكون ملكا لك »

ولم يتمالك باهوم من اظهار الفرح والسرور عند مارأى ذلك السهل الفسيح وتيقن انه خصب يصلح لزراعة كل أنواع الحبوب ثم أسرع من وقته فوضع مالديه من النقود وهو الالف روبل فى قبعة الرئيس ثم طرح رداءه الخارجى وشمر عن اكمام قميصه ليكون خفيف الحمل فى السير وتمنطق بسير من الجلد شده على وسطه وحمل على ظهره حقيبة صغيرة فيها بعض الزاد وما يلزم لشربه ذلك اليوم ثم أمسك بالفأس والتفت يمنة ويسرة ليختار له وجهة للسير وبعد أن وقف برهة ناجى نفسه قائلا : كل الارض سواء ولكن يحسن بى أن أسير نحو الشرق » قال ذلك وحمل فأسه على ظهره وسار يتبع مشرق الشمس .

*****

وبعد أن قطع نحو ألف ياردة وقف قليلا حفر الارض ثم

جعل بجانبها كومة من التراب علامة لوصوله تلك البقعة وكان يمشي مشيته الاعتيادية لا يمهل ولا يعدو فقطع بذلك ألف يردة أخرى وجعل علامة أخرى، ثم مشى قليلا ونظر الى التل حيث كان القوم فلم يتبينهم جيدا لانه كان قد ابتعد عنهم كثيراً بمسافة لا تقل عن الثلاثة أميال كما قدرها باهوم في نفسه وكان الوقت ضحى فابتدأ يشعر بحرارة الشمس فقال في نفسه : « قد قطعت ربع ما يجب أن أقطعه في اليوم وعلي أن أتم المربع في باقي اليوم ولكن لا يزال أمامي متسع من الوقت » قال ذلك وخلع نعليه وربطهما في وسطه ليرتاح في المشي ثم سار في وجهته الأولى وكان كلما سار وجد الارض أخصب والتربة أجود. فقال في نفسه : « إنه من الحمق ترك هذه البقعة الخصبة ما على لو سرت ثلاثة أميال أخرى » . فسار فيها وقد جدد الحرص في نفسه همته الاولى حتى اخذ التعب منه مأخذه فنظر واذا بالشمس في كبد السماء فعلم أن النهار قد انتصف فوقف ريثما جعل علامة لوصوله تلك البقعة ثم جلس للغداء فأكل بعض الزاد وشرب قليلا من الماء وانتصب واقفاً وهو يقول : « يجب أن أسير لان الراحة تجلب النعاس واذا نمت قليلا لا آمن من الخسارة » فسار من وقته وقد أراد أن يعطف الى وجهة أخرى اتماما للمربع غير أنه أبصر على مقربة منه أرضاً منخفضة فقال في نفسه : « هذه الارض تصلح لزراعة الكتان وما كنت لاترك هذه الفرصة » قال ذلك ومشى

حولها حتى اذا ما أتم مسيره وقف عند نهايتها وجعل علامة لوصوله تلك البقعة أيضاً. ثم نظر الى التل فرأى أن حجمه قد صغر جداً فعلم أنه قطع كثيراً وأنه ان يسرع فى الرجوع خسر كل آماله. فأسرع لوقته وهو يقول: « ان الارض التى قطعتها لا نسبة بين طولها وعرضها اذ أن الطول سوف يربو كثيراً على العرض ولكن رغم ذلك فقد أصبحت أملك قطعة فسيحة من الارض » ثم وقف برهة يحفر الارض بسرعة زائدة لتكون علامة وصوله تلك الجهة وبعد أن أتم عمله انعطف نحو التل يريد الرجوع مسرعاً الا أن كثرة المشى وشدة الحر انهكتا قواه فصار يمشى بصعوبة ويتهادى فى مشيته كالشيخ الضعيف بعد أن كان يهرول. أما قدماه فقد تشققتا وسالت الدماء منهما لكثرة ما اصطدم أثناء مشيه بالحجارة والحصى وهو لا يعبأ وتخاذل ساقاه وضعفتا عن حمله اذ كان فى حاجة شديدة الى بعض الراحة ولكن أبى له ذلك والشمس آخذة فى الغروب شيئاً فشيئاً وكان ما عليه من الحمل يضايقه كثيراً فرمى حقيبته أولاً ثم نعليه وخلع بعد ذلك صدرته وهكذا صار يرمى ما عليه من الملابس حتى لم يبق عليه سوى القميص والسروال وأمسك بيده الفأس ليتوكأ عليه وسار يعدو بكل قواه واستمر مدة على هذه الوتيرة ثم نظر الى الشمس فعلم أنها لا تلبث أن تغرب ففزع لذلك كل الفزع وقال فى نفسه: « رباه ماذا العمل يخيل لى أن الطمع

سيفسد على كل أمالى » غير أنه مالبث أن تشجع قائلا : « عار على أن أرجع عن عزمى فاتقاعد عن السير بعد أن قطعت هذه الشقة الطويلة » فجمع نفسه وسار يمشى بكل قوته حتى قارب التل فسمع صياح القوم من بعد فتشجع ثانيه وأخذ يعدو بكل ما فيه من قوة وعزم وكانت الشمس قد قاربت الغروب فلا تمضى بضع دقائق حتى تختفى عن الانظار الى ما وراء الشفق الاحمر، الا أن باهوم كان فى ذلك الوقت على مسيرة بضع خطوات من سفح التل يسمع صياح القوم ويميز أصواتهم ويرى قبعة الرئيس عند ذلك تذكر مارآه فى الحلم فقال فى نفسه : « حقاً إن الارض التى قطعتها فسيحة الأرجاء بعيدة المدى ولكن هل كتب لى فى لوح المقدور أن أعيش عليها » ثم عاد فتذكر أنه على قيد خطوات من مبدأ مسيره وأنه ماعليه الا أن يجمع عزيمته ثانية فيصل اليها ويملك الارض. فجددت هذه الاماني فى نفسه ميت الامل فسار طوراً يتهادى كالشيخ الضعيف وتارة يحبو كالطفل الرضيع حتى وصل سفح التل عند ذلك نظر واذا بالشمس قدغربت وأصبح السهل فى ظلام حالك فتقطعت نياط قلبه وصاح يقول : « أواه قد ذهبت التعابى أدراج الرياح » الا أن القوم لم ينقطعوا عن صياحهم ونداتهم فتذكر أن مكانهم أعلى من مكانه لانه مازال فى سفح التل وأن الشمس لاتزال ظاهرة لديهم فتنفس الصعداء وجمع كل مالديه من قوة وعزم وأخذ

يصعد التل فوصل القمة وكانت الشمس لا تزال ظاهرة لديهم ثم عاد فتذكر ما رآه فى الحلم فصرخ صرخة مزعجة وارتمى على الارض بالقرب من قبعة الرئيس وقد وضع يده عليها . فقال الرئيس : « انه سعيد الحظ فقد أصاب قطعة كبيرة من الارض » ثم أسرع خادم باهوم ليرفعه عن الارض ولكنه ما كاد يرفعه قليلا حتى سال الدم من فمه وارتمى على الارض جثة هامدة . فوجم القوم وأطرقوا برؤسهم الى الارض وقد ارتسمت على وجوههم أمارات الكآبة والحزن .

وقام خادم باهوم فحفر لسيده قبراً يبلغ طوله ستة أقدام وكان ذلك كل نصيبه من الارض

الحكاية الثالثة

ابن العراب

كف الاذى عن بنى الدنيا وكن رجلا يتيه فى حلل التقوى ويختال
فما أعز من التقوى ولو جعلت يمناك فى الناس بالخيرات تنهال

محمود الجبالى

بسم الدهر ذات صباح لقروى فقير فرزق طفلا فرح به فرحا شديداً وعلق عليه آمالا كبيرة وأسرع لوقته نحو جاره العزيز مستبشرا فأخبره بالأمر وطلب منه ان يكون عراباً للطفل. ولكن جاره العزيز أنف من ذلك ورده خائباً . فانصرف المسكين يتعثر بأذيال الخيبة والفشل وقصد جاره الثانى فالثالث ثم الرابع وهكذا حتى طرق ابواب القرية على غير جدوى لا لذنب اتاه أو لجرم اقترفه سوى انه فقير معدم .

أظلمت الدنيا فى وجهه أثر هذه الصدمة الشديدة فسخط على الدهر وتبرم من جده العاثر ثم خرج من قريته مولياً وجهه شطر القرية المجاورة بغية أن يجد فيها من لا يأنف من أن يكون عراباً لمولود فقير فسار المسكين (فى طريقه) تتناوبه الاحزان وتتقاسمه الهموم والاشجان لا يلوى فى طريقه على شىء .

وما كاد يبلغ نصف الطريق حتى استوقفه رجل طارحه السلام وسأله عن وجهة مسيره . فاخبره بما وقع له ذلك اليوم ثم ختم

حديثه قائلا : وانى الآن ذاهب الى القرية المجاورة عسانى اجد رجلا لا يأنف من ان يكون عرابا لطفلى . فابتسم الرجل المجهول . وقال انا أكفيك مؤونة البحث والتعب دعنى أكون عرابا لولدك . ما سمع القروى المسكين هذه الكلمات التى نزلت على قلبه بردا وسلاما حتى تهلل وجهه بالبشر وتمتم بعض كلمات يشكر بها معروف الرجل . ولكن عاد فعبس ثانية كمن تذكر امراً فاته فقال وصوته يتهدج حزناً :

آه يا مولاى لم تنفرج الازمة بعد . قل لى بربك . اين أجد امرأة طيبة القلب نظيرك تقبل أن تكون عرابته

لا تحزن يا صاح فأنا أرشدك الى امرأة صالحة تقبل ذلك عن طيب خاطر . اذهب الى المدينة وهناك فى الساحة العمومية تجد منزلا مبنياً بالآجر فى مدخله حانوت فاسأل عن صاحب هذا الحانوت وعندما تقابله أخبره بالأمر واطلب منه ان تكون ابنته عرابة لولدك فانه لا يردك خائباً .

فهز القروى كتفيه بيأس كمن يرتاب فى أمر لا يرجوه ثم خاطب الرجل قائلا :

أمثلى يطلب من تاجر غنى أن تكون ابنته عرابة لابنى لا ريب فى أنه سوف يهزأ بشأنى ويزدرينى اذا تجاسرت على مثل هذا الطلب

فأجابه الرجل بملء السكينة .

لا تدع اليأس يتطرق الى فؤادك بل كن واثقاً بأنه سيجيب طلبك فاسرع يا عزيزى قبل فوات الوقت وغداً صباحاً تجدنى حاضرا فى حفلة التنصير فقفل القروى راجعاً الى قريته وامتطى فرسه وقصد المدينة يبحث عن حانوت التاجر وعند مااهتدى اليه وترجل عن فرسه قابله التاجر بوجه باش وسأله عن حاجته فاجابه والخجل يكاد يعقد لسانه :

اعلم يا سيدى انه ولد لى فى هذا الصباح طفل وقد جئت ارجوك ان تتفضل بأن تكون ابنتك عرابته . فسأله التاجر —

ومتى تكون حفلة التنصير

غداً صباحاً

حسن سوف تكون ابنتي عندك غداً فاذهب مطمئن البال.

وفى اليوم الثانى حضر الرجل المجهول وحضرت ابنة التاجر وبعد أن اتم الكاهن تنصير الغلام انصرف الرجل المجهول ولم يعلم عنه شيئا بعد ذلك اليوم

****

مضت أيام وشهور كبر أثناءها الطفل وترعرع فأدخله والداه مدرسة القرية فتعلم فيها كل مايمكن أن يتعلم وخرج منها شابا متين العضل قوى البنية تلوح على وجهه أمارات الجد والاقدام .

جاء عيد الفصح فأشرقت منازل القرية وأكواخها بالأنوار

وخرج القرويون زرافات ووحدانا وعلى وجوههم سيماء البشر وأمارات السرور. أما طفل الأمس وفتى اليوم فكان يسير وحيداً منفرداً مبتعداً عن الضجيج يفكر فى عرابه المحبوب ذلك الرجل الطيب القلب الذى رضى بكل ارتياح أن يكون عراباً له فى الوقت الذى أنف أهل قريته من هذا الأمر. ثم ناجى نفسه قائلا :

آه لو استطعت مقابلة ذلك الرجل الطيب إذن لكنت أوقف كل حياتى على خدمته واحترامه. ما كاد يصل من حديث نفسه ألى هذا الحد حتى التفت الى يمينه وأذا به يرى شيخا يدب على عصاه تلوح عليه الهيبة والوقار وكان يدنو منه باسما وهو يقول.

— تقدم يابنى ولا توجل أما كنت منذ هنيهة تحدث نفسك مستفهما عن مقر ذلك الرجل الذى رضى أن يكون عرابا لك فى طفولتك. فهذه المقادير جمعتك به لتقدم له تحية عيد الفصح.

عند ذلك ارتبك الشاب لهذه المباغتة ولكنه سرعان ماتمالك نفسه وتقدم الى الرجل باسما وشكره على معروفه السابق وقدم له تحية العيد بأن قبله ثلاثا كما هى العادة ثم خاطبه قائلا :

— كم أكون مسروراً ياسيدى اذا شرفتنى بمعرفة اسمك ومكان اقامتك لاقوم نحوك بما يجب للابن نحو عرابه.

— لاسبيل الى معرفة اسمى اذ لايهمك ذلك وأما اذا رغبت أن تعلم مكان اقامتى فما عليك ألا أن تذهب غدا الى هذه الغابة

المجاورة وتمشى فيها حتى ينتهى بك المسير الى ساحة صغيرة محاطة بالاشجار الباسقة فتقف فى ذلك المكان قليلا تتأمل ما حولك فترى طريقا ينتهى بك الى قصر شاهق تحيط به حديقة غناء هذا هو منزلى وفى فناء هذا القصر تجدنى فى انتظارك. وما وصل الرجل من حديثه الى هذا الحد حتى رفع الشاب رأسه ليتأمل وجه عرابه جيدا واذا به لا يرى أمامه سوى الحقول الخضراء وعلى بعد منه يسمع ضجيج أهل القرية فى سرورهم وابتهاجهم بالعيد. فتقفل راجعا وهو كمن فى حلم لا يصدق ما رآه وأزمع المسير الى الغابة صباح ذلك اليوم ليتأكد صحة ما سمعه ورآه

***

ما كادت الشمس تشرق حتى كان الشاب فى طريقة الى الغابة يعدو فى مشيته ونفسه تنزع الى معرفة سر الرجل حتى اذا انتهى به المسير الى الساحة التى وصفها له عرابه وقف يتأمل برهة فرأى طريقا غاية فى الابداع تحف به الاشجار على كلا الجانبين وينتهى بقصر شاهق محاط ببستان جميل يتلألأ فى تلك البقعة النضرة تلألؤ الكوكب المنير.

عند فناء هذا القصر البديع قابله عرابه بوجه باسم ومشى به الى الحديقة أولا ثم القصر ثانيا متنقلا به من جهة لاخرى يريه مقاصير القصر ويطلعه على محتوياته وكان كلما مشى خطوة زاد

تعجبه من محتويات القصر وفرشه الثمين الى أن انتهى بهما المسير الى غرفة مقفلة فوقف العراب امامها واشار اليها قائلا: « قد انتهينا الآن من طوافنا وقد اطلعتك على كل مافى القصر ولك أن تمرح فيه كيف تشاء وانى شئت ولكن حذار أن تدخل هذه الحجرة »

وما كاد العراب يفرغ من كلامه هذا حتى اختفى عن الانظار ولم يظهر له أثر بعد ذلك . فقضي الشاب ردحا من الزمن وقد طابت له السكنى فى القصر فعاش هنيء البال قرير العين مدة تقرب من الثلاثين عاما مرت عليه كحول واحد لاغتباطه وسروره .

مرت عليه تلك المدة الطويلة وهو فى مقام كريم وعيشة راضية ثم تسرب اليه الملل شيئاً فشيئاً فصار يطوف القصر طول يومه يبحث عن شيء جديد يسلى به النفس واذا به واقف ذات يوم امام الغرفة المقفلة ثم تذكر وصية عرابه فتنازعه عاملان عامل الفضول وعامل احترام الوصية . وأخيرا تغلب عليه الفضول ففتح الباب ثم ولج الغرفة وتقدم فيها بضع خطوات فرأى نفسه فى بهو فسيح يتوسطه عرش كبير يصعد إليه المرء ببضع سلمات فتقدم نحوه ورقيه ثم جلس يتأمل ماحوله فوقع بصره على صولجان بديع الصنع بالقرب منه فمد أليه يده ليمسكه وما كاد الصولجان يستقر بين أصابعه حتى سمع ضجة وجلبة وأذا بأركان الغرفة تهتز ثم رتفع جدران البهو فنظر واذا به يرى العالم اجمع منبسط أمامه

وهو ينظر اليه من عل . نظر امامه فرأى البحار والمحيطات تمخر فيها المراكب وتشق عبابها السفن ثم التفت يمنة فأبصر عوامل غريبة وأجناساً مختلفة من البشر يخالفونه فى الشكل واللباس ثم ادار وجهه الى جهة اخرى فرأى اناساً يقاربونه فى شكلهم ولباسهم يتكلمون بلغة يفهمها فعلم انهم روسيون مثله فتهالى وجهه وحدثته نفسه أن يبحث عن أهله وقريته ليقف على احوالهم فأنعم النظر يبحث عن قريته بين مئات القرى وما كاد يهتدى اليها حتى خطر بباله أن يتفقد حقل والده فصوب نظره نحو الحقل فرأى أكداس الحصيد منتشرة فى طول الحقل وعرضه على اهبة النقل ثم ابصر رجلا يتسلل الى الحقل بعربته فظن أن والده جاء ليلا ليحمل الغلال الى مخازنه ولكنه لم يكد يتبينه حتى علم انه (واسيلى كوندراتشوف) جاء متستراً بأثواب الليل ليسرق بعض القمح . وعند ذلك انتفض الشاب غضباً وصاح باعلى صوته : قم يا أبت فأن اللص يسرق القمح من مزرعتك . وكان الوالد ذاك نائماً على بعد من المزرعة فقام من فوره ينفض عن نفسه غبار النوم ويناجى نفسه قائلا: « قد نبهنى صوت هاتف يقول أن لصاً يسرق الحنطة من الحقل فسوف اذهب الى هناك لاتحقق الأمر بنفسى » قال ذلك وامتطى فرسه ثم اسرع للحقل وهناك رأى اللص (واسيلى) فأمسك بخناقه وساقه الى السجن

عند ذلك اطمأن بال الابن وصوب نظره الى مدينة القرية ليتفقد حال عرابته ابنة التاجر فعلم انها تزوجت من رجل تاجر ثم نظر فرآها نائمة ورأى زوجها قد قام الى الباب متسللا ثم خرج يمشي فى طرقات المدينة ليلا فاتبعه النظر فرآه قد دخل عند امرأة أخرى علم انها خليلته ذهب اليها فى تلك الساعة من الليل ليخون امرأته فاستفزه الغضب لهذا الامر وصاح بعرابته ينبهها قائلا :

« ألا انتبهى ايتها الغافله فان زوجك يسلك طريق الغواية »

فقامت المرأة من نومها فزعة وتلمست مكان زوجها فلم تجده فتحققت صدق قول الهاتف فلبست ثيابها مسرعة وذهبت تبحث عنه الى أن اهتدت اليه وهو بين احضان خليلته فشب بينه وبينها عراك عنيف ورجعت الى بيتها مغضبة بعد أن أوسعت زوجها شتما وتوبيخاً .

عند ذلك اطمأن بال الشاب وخطر بباله أن يتفقد حال امه فصوب نظره نحو البيت فأبصر لصاً يحاول كسر الصندوق الذي اعتادت أمه أن تضع فيه امتعتها ووجد امه نائمة بالغرفة المجاورة ثم نظر فرآها قد استيقظت على أثر صوت الكسر ورأى أن اللص قد امسك بيمينه فأساً يريد ان يهوى به على رأس امه ليقتلها . فلم يتمالك الولد أن هوى بالصولجان على رأس اللص فوقع لساعته قتيلا عند ذلك اهتز أركان العرش وسمع صوت الجدران تنزل ثانية

ثم نظر واذا بالغرفة قدعادت كما كانت وبعد برهة فتح الباب ودخل عرابه متقدماً نحو العرش فأخذه بيده وأنزله منه وهو يقول:

« هأنذا أراك قد خالفت امرى وارتكبت معصية الدخول الى الغرفة رغم تحذيرى أياك ثم اتبعتها بخطيئة أخرى عندما علوت العرش وتداخلت فيما لا يعنيك وأخيرا ختمت هاتين المعصيتين بجرم افظع اذ قتلت نفساً بشريه ولو تسنى لك أن تمكث هنا نصف ساعة أخرى لكنت تتلف نصف العالم »

قال الرجل هذا القول وأمسك بيد الشاب وقاده ثانية الى العرش وقبض بيده على الصولجان فرتفع الجدران ثانية وانكشف العالم أمامهما مرة أخرى ثم أشار العراب بيده قائلا : « انظر ماذا قدمت لوالدك من أساءة كنت تظنها مكرمة . هاهو واسيلى اللص قد أمضى سحابة عامه بين جدران السجن مهد الشر والموبقات فازداد غلظا وشراسة وكانت فاتحة شروره بعد خروجه من السجن أن سرق فرسين لوالدك وهاهو الآن يضرم النار فى أجران القمح انتقاما لنفسه من أبيك . كل هذه المصائب أنت السبب فى جلبها لابيك » فنظر الشاب امامه فرأى أكوام القمح تحترق ، فهلع قلبه اضطرابا ولم يتمكن من أدامة النظر لان العراب التفت الى جهة أخرى وأشار قائلا : « انظرها هو زوج العرابة مضى عليه عام بعد هجر زوجته ولم يقلع بعد عن شروره وآثامه أما خليلته

فقد زادت انغماسا فى شهواتها وهاهى عرابتك تندب سوء حظها وتقضى ليلها تعالج همومها بالمسكرات بغية أن تجد الصبر والسلوان . فهل رأيت صنعك لعرابتك والآن انظر لترى ماقدمته يداك لامك المسكينة » فنظر واذا به يرى والدته فى كسر دارها قد أثقلت ظهرها الهموم وهى تقاسى الامرين من تبكيت الضمير وتندب حظها فائلة: «ويح نفسى ما أشقاها لقد كان الاولى بى أن يقضى على اللص فى تلك الليلة المشؤمة من أن يحملنى تلك الخطيئة » . ثم أشار اليه عرابه أن أنظر فنظر واذا به يرى دار السجن وأمامها ثلة من الجنود فقال له: «أترى هذا الرجل انه سفك دماء عشرة من الابرياء وكان لامحيص له من أن يكفر عن سيئاته بنفسه ولكنك عجلت عليه بالقتل فحملك جريرة دمه ودم الذين جار عليهم بالقتل فهل رأيت الآن نتيجة عملك وما جلبته لنفسك بطيشك ونزقك . أمامك الآن ثلاثون عاما تقضيها فى هذا العالم تضرب بقدمك فى فسيح أرجائه وتعمل جهدك على تكفير ذنبك واذا لم تتمكن من تكفير ذنوبك قبل انقضاء هذه المدة تنال من الجزاء ما كان سيناله هذا اللص » فسأله الشاب وقد اكدلونه وارتسمت على وجهه علامات الخوف والجزع :

— بربك قل لى كيف اكفر ذنوبى

فأجابه : ذلك ميسور لك اذا تلافيت من شرور هذا العالم

بالقدر الذى جلبته اليه وبذلك تكفر عن خطئك وخطايا الناس معاً .

— وكيف السبيل الى محو الشر من العالم ؟

أنا مرشدك الى ذلك . قم الآن وسر فى الارض نحو المشرق وبعد مسير بضعة أيام تصل الى مزرعة فيها بعض رجال فراقب ما يعملون ثم أخلص لهم النصح بما تعلمته فى سفرك وأتم مسيرك نحو المشرق أيضاً الى أن ينتهى بك المسير الى غابة كذا وفيها تجد كهفا يسكنه شيخ معتكف فقص على هذا الشيخ كل ما تراه وتتعلمه فى طريقك اليه فهو مرشدك الى ما يكون فيه تكفير ذنبك ان شاء الله .

وبعد أن ودع الشاب عرابه سار يتبع مشرق الشمس كما أمره وهو يناجى نفسه بهذه الاقوال : « كيف يتسنى لى محو الشر من هذا العالم ؟ وكيف يستطيع المرء ذلك دون أن يتحمل خطايا البشر ؟ ألا تكفى القوانين الوضعية التى تحكم بالسجن والجلد والنفى أو بالموت ؟ وهل لادواء الانسانية وشرورها علاج غير ذلك ؟ أخذ يفكر فى ذلك طول طريقه علّه يجد حلا لهذه المشكلة ولكن على غير جدوى وكان قد وصل الى مزرعة كبيرة ورأى القمح فيها ناميا وقد طالت سوقه ولم يبق على حصده الا القليل ثم لمح على بعد منه عجلا صغيرا يعدو فى الحقل وقد طار وراءه بعض الرجال يطاردونه بغية إخراجه من الحقل قبل إتلاف سوق القمح ثم رأى فى الطرف

الآخر من النزعة امرأة تعوى وتصيح قائلة :

— يالله الناجية إنهم سوف يقتنصون العجل فلا يلبث أن يقع صريعا بين أرجل جيادهم . عندذلك ناداهم ابن العراب بقوله : « ماهذا الحمق تنحوا عن العجل ودعوا المرأة تناديه فلا يكبح جماحه » .

فأصغى الرجال لقوله وتنحوا عنه واقتربت المرأة من الحقل تنادى عجلها بقولها : إلى يا (براونى) إلى ياعزيزى الصغير فوقف العجل قليلا يرهف أذنيه نحو الصوت ثم مالبث أن عدا نحوها وارتمى فى أحضانها فرحاً .

فاغتبط الرجال وفرح العجل وعلى هذه الصورة الجميلة انحل المشكل ففكر الشاب فى نفسه يقول : « حقا إن الشر لايعالج بمثله وقد دلنى الاختبار ان الناس يزيدون نار الشر ضراما كلما حاولوا اخماده بالجبر والعسف . قد أطاع العجل سيدته وهكذا سارت الامور على محور الخير ولكن كيف تكون النتيجة لو أن العجل لم يطع سيدته . ففكر فى ذلك طويلا دون أن يهتدى الى حل معقول وكان قد ترك الحقل متمما مسيره حتى وصل الى قرية صغيرة وما كاد يصل آخر القرية حتى أخذ التعب منه مأخذه فتلفت يبحث عن مكان يرتاح فيه ليلته فرأى منزلا صغيراً فى آخر القرية فسار اليه وطلب ان يؤذن له بالمبيت تلك الليلة فاستقبلته صاحبة المنزل بالترحاب واجلسته بالقرب من الموقدة ليستدفىء ثم أخذت تتمم ماكانت فيه

من تنظيف آنات المنزل وترتيبه وكانت قد أتمت كل عملها تقريباً ولم يبق عليها الا تنظيف مائدة الأكل استعدادا ليوم الأحد فمسحتها مسحاً جيداً ثم أحضرت خرقة قذرة تريد تنشيفها وما كادت تضع الخرقة على المائدة حتى اتسخت ثانية فأعادت غسلها ورجعت تنشفها بالخرقة عينها فاتسخت مرة أخرى . وكان ابن العراب راقب عملها بكل انتباه واخيراً لم يتمالك من ان يقول لها: ماذا تصنعين ياسيدتى؟ فأجابته : «الا ترانى استعد للغد وقد اتممت كل عمل الا هذه المائدة فقد أعيانى امر تنظيفها » فأجابها : عبثا تحاولين يا سيدتى تنظيف المائدة بتلك الخرقة القذرة انما يجب تنظيف الخرقة أولا ثم تمسحين بها وهى نظيفة » فامتثلت لقوله وتم الأمر كما تشتهى السيدة فشكرته على نصيحته وعند الصباح شكر حسن ضيافتها وسار فى قصده حتى انتهى الى غابة رأى عند مدخلها بضع رجال يصنعون أطار العجلات وعندما اقترب منهم رآهم يدورون حول قطعة من الخشب دون أن يتمكنوا من احنائها فنظر الى قطعة الخشب فرأى أنها غير ثابتة فى الكتلة التى يدورون حولها .

فكانوا كلما داروا داروا الخشب معهم . فتقدم منهم الشاب وطارحهم السلام ثم سألهم عما يصنعون فأجابوه

— «الا ترى أننا نضع أطاراً للعجلات وكثيراً ماحاولنا احناء

هذه القطعة ولكن علي غير جدوى » فأجابهم بقوله « كان عليكم أن تأكدوا من ثبات الخشب فى الكتلة أولا ثم تشرعون فى العمل والا تدور معكم كما تدورون » فعملوا باشارته وتم الأمر على أحسن حال وأمضي الشاب ليلته معهم. وعند الصباح قام يضرب بقدميه فى الارض ثانية حتى وصل الى كلأ من الارض فيه بعض الرعاة وقد انتشرت مواشيهم ذات اليمين وذات الشمال فاقترب منهم فرآهم يحرقون بعض الاعشاب بغية اضرام النار ولكن النار ما كانت لتشتعل حتى كانوا يرمون عليها بعض الاعشاب الندية فتخمد لوقتها . ثم أعادوا العمل بنفس الطريقة فأصابهم من الفشل ماأصابهم فى المرة الاولى فتقدم اليهم الشاب قائلا :

— أراكم أيها الرفاق تستعجلون بوضعكم الاعشاب الندية قبل شبوب النار وانما عليكم ان تنتظروا ريثما تشب النار تماما فتضيفوا اليها قدر ماتريدون من العشب .

فعملوا باشارته وتركوا النار حتى شبت تماما ثم أضافوا اليها أعشابا أخرى فاشتعلت واستخدموها فيما يريدون ثم أقام الشاب بينهم ريثما استراح وقام يتمم مسيره ثانية مفكرا فى كل ماصادفه فى طريقه وهو يحاول أن يجد لها معنى ولكن لم يهتد الى شيء . وفى اليوم التالي وصل الى أجمة أخرى وفيها أبصر الكهف الذى يسكنه الراهب المعتكف فضرب عليه

الباب فسمع صوتا ضعيفا يقول : من هذا الواقف على الباب . فأجابه الشاب : رجل مجرم أثقلته ذنوبه فجاء يكفر عنها . ففتح الباب وخرج منه شيخ مجوز أحنت الايام قوس ظهره وسأله عن جلية أمره فأفضى اليه الشاب بكل ماوقع له فى بيت عرابه وأخبره كذلك بما رآه فى المزرعة حيث كانت الرجال تطارد العجل وكيف نصحهم ثم ختم حديثه قائلا :

—« ومن ذلك الوقت علمت أن الشر لايدفع بالشر ولكن لم أهتد حتى الآن الى الطريقة المثلى التى يجب اتباعها لدفع الشر فهل لك ياسيدى أن ترشدنى لذلك » فأجابه الراهب : أمض فى حديثك يابنى واخبرنى بمارأيته أيضا . فعاد الشاب الى حديثه وأحكى له مارآه فى بيت المرأة وقص عليه أمر الرجال الذين كانوا يصنعون أطار العجلات ثم أخبره بماوقع له مع الرعاة .

كل ذلك والراهب مطرق برأسه يصغى اليه جيداً وعند انتهاء الحديث دخل الى كهفه وعاد ثانية وبيده فأس صغير كالذى يستعمله الحطابون . ثم قاده الى وسط الاجمة وأشار الى شجرة هناك ثم قال . اقتلع هذه الشجرة من أصولها ثم اقطعها بالفأس الى قطع ثلاث . ففعل ابن العراب كما أمره الراهب وعند انتهاء العمل ذهب الراهب الى كهفه ورجع اليه بقطعة خشب مشتعلة وأمره أن يحرق بها القطع الثلاث حتى تصير كلا منهما كالفحمة

السوداء وبعد أن فعل ذلك أيضا أمره بغرس القطع المحروقة فى الارض حتى النصف .

وعند انتهائه من العمل وضع الراهب يده على كتف الشاب وخاطبه بقوله :

— «أترى ذلك النهر الصغير عند سفح الجبل عليك أن تنقل منه الماء بفمك لسقى هذه الاعود الثلاث . اسق العود الاول كما علمت المرأة واسق الثانى كما أشرت على صانعى العجلات والثالث كما أشرت على الرعاة واستمر على سقيها وتعهدها حتى ترى أن هاته الاعواد الثلاث تنمو وتينع وتصبح كل منها شجرة تفاح صغيرة . عند ذلك تكفر عن خطيئتك وتعلم فى الوقت نفسه كيف يمكن اقتلاع بذور الشر من بين جوانب الانسان »

وعند ما انتهى الراهب من حديثه قفل راجعا الى الكهف وترك الشاب غارقا فى بحار التفكير يضرب أخماساً لأسداس ويقلب وجوه الرأى عساه يهتدى الي معنى لكل ما رآه وأخيرا لم يربدا من اطاعة أمر الراهب اطاعة عمياء كما أوصاه عرابه فصار ينقل الماء بفمه ويسقى الاعواد طول يومه حتى أعياه التعب وأخذ منه الجوع كل مأخذ فسار الى الكهف ليطلب منه مايسد به الرمق ولكنه ما كاد يدخل الكهف حتى رأى الراهب جثة هامدة فهاله الامر وأسقط فى يده لايدرى ما يصنع وأخيرا تمالك روعه

وأخذ ينقب فى أطراف الكهف حتى اذا أصاب شيئا من الخبز الناشف أكله ونام ليلته بالقرب من جثة الراهب وعند الصباح قام الى فأسه وحفر قبراً للراهب بالقرب من الكهف وبينما هو فى عمله رأى جمعا من الناس جاءت لتزور الراهب ومعهم بعض الزاد كعادتهم فأخبرهم بموته فأسفوا عليه وعاونوه بدفنه فى الحفرة التى أعدها له من قبل ثم ودعه الحاضرن بعد أن تركوا مامعهم من الزاد وقد وعدوه بزيارته من حين لآخر كما كانوا يزورون ساكن الكهف سلفه ومن ثم اشتهر أمره بين سكان الجهات المجاورة للغابة بأنه لاينفك عن نقل الماء بفمه من النهر حتى الكهف رياضة للنفس وكبحا لجماح الهوى . فتقاطروا اليه من كل صوب للتبرك به ومعهم كثير من الهدايا الثمينة فكان يبقى لديه الضرورى منها ويوزع الباقى على الفقراء والمساكين . وكان يمضى نصف يومه فى نقل الماء وسقى الاعواد والنصف الآخر فى استقبال زواره العديدين .

مضى عليه حولان لم ينقطع أثناءهما يوما واحدا عن نقل الماء وسقى الاعواد ولكنها كانت على حالها السابق لم تتغير مطلقا . وبينما كان ذات يوم جالسا فى كهفه سمع وقع حوافر جواد وصوت انسان يغنى فقام الى الباب ليستطلع الامر واذا به يرى شابا مفتول العضل عليه سيماء الشراسة والشر

فسأله ابن العراب عن نفسه وعن وجهة قصده فأجابه الرجل وقد أمسك بزمام فرسه يوقفه : « أنا لص اقطع الطريق على الناس وكلما قتلت انسانا كلما ازددت ابتهاجاً فأردد على الدوام الاناشيد التى تردد صداها هذه الجبال » ففكر ابن العراب فى نفسه يقول : « هذا رجل قد جبل على الاجرام وطبع على محض الشر فكيف السبيل الى ارشاده انه من السبل ارشاد أولئكم الذين يأتون الى بمحض ارادتهم يعترفون لى بذنوبهم ويطلبون الصفح والغفران ولكن كيف الطريق الى نزع ما كمن فى نفس هذا اللص من الشر وهو يفتخر بذنوبه ويتيه عجبا بما يقترفه من الاثام » ثم فكر ثانية وقال فى نفسه « رباه كيف العمل ؟ فقد يأوى هذا اللص الى جهة قريبة من الكهف فيوقع الرعب فى قلوب زائريه وبذلك تضيع الثمرة فلا أدرى كيف أعيش بعدها » ثم التفت الى اللص وخاطبه قائلا : « اعلم يا هذا أن الناس يحضرون عندى يلتمسون التوبة والغفران باعترافهم عن ذنوبهم فلا يفتخرون بها مثلك فاقلع أنت أيضاً عن شرورك وآثامك والتمس التوبة قبل فوات الفرصة ان كنت ممن يخافون الله . وان لم تكن ثمة ندامة فى قلبك فلا تقرب هذه الجهة لان ذلك يوقع الرعب فى قلوب الذين يفدون على فان لم ترعو فان الله كفيل بعقابك » فاجابه اللص: « أنا لا أخاف الله ولا اصغى لهذيانك اذ ليس لك على أقل سلطان . أنت

تعيش بزهدك وأنا أعيش بالصوصية فكلانا يعمل ليعيش واذاً فالغاية واحدة وان اختلفت الواسطة وحرى بك ان تدخر مافى نفسك من النصائح للعجائز اللواتى يحضرن مجلسك أما أنا فلا أخدع بزخارف الأقوال . ولكن بما انك ذكرتنى بعقاب الله فلا يشرق صباح الغد حتى أكون قتلت نفسين ذكرى لهذه النصيحة وكان بودى أن أقتلك ولكن لاأريد ذلك الآن والويل لك ان اعترضت طريقى بعد اليوم » ماكاد اللص يتم حديثه ووعيده حتى لوى عنان فرسه وغاب عن الانظار ولم يسمع له خبر بعد ذلك فاقام ابن العراب فى كهفه ثمانية أعوام اخرى فى هدوء وسلام .

***

جلس ابن العراب فى كهفه ذات مساء بعد ان فرغ من سقى الاعواد كعادته مترقبا قدوم زائر ولكن لم يحضر اليه أحد ذلك المساء فاكتأب لذلك واستولت على نفسه الهموم والاحزان وأخذ يفكر فى معيشته الجديدة فى الكهف ثم تذكر قول اللص وكيف عاب عليه التعيش بالزهد والمسكنة فأنب نفسه ورجع يوبخ ضميره قائلا : « ويح نفسى ماأشقاها! جئت هنا لاكفر عن خطيئتى واذا بى أضاعف ذنوبي وآثامى . نعم قد صدق اللص فى قوله : كلانا يعمل ليعيش أنت بزهدك وأنا بسفك الدماء وقتل نفوس الابرياء ليست هذه المعيشة هى التى أتمسك بها لأكفر عن سيئات نفسى

ولم تكن هذه الخطة التي أنتهجها كفيلة بغسل آثامي بماء الطهر والتوبة . فقد كان على أن أكتفي باليسير من الخبز ولكن ملك الغرور على نفسي فاصبحت ارتاح لمدح الناس اياى بالزهد والتقوي وها أنا ذا قد استولى على الهم لانى لم أجد بين يدى من يتقرب الي بالمدح والثناء . كلا . كلا ! على أن أفر من وجه الناس والتمس المعيشة فى ركن آخر من هذه الغابة حيث لايصل الى أحد منهم »

وما وصل من حديث نفسه الى هذا الحد حتى قام من مكانه وعلى وجهه امارات العزم الصادق ثم احتمل سلة الخبز وأمسك محراثه بيمينه ليحفر لنفسه كهفا آخر فى ركن مهجور من الغابة وفيما هو فى طريقه قابله اللص ففزع منه ابن العراب وولي الادبار الاان اللص أسرع فأمسك به وسأله عن قصده فأجابه انه يريد اعتزال الناس فى ركن من الغابة فعاد اللص وسأله : ومن أين لك ما تتبلغ به اذا أنت اعتزلتهم ؟ فقال : « ذلك لايهمنى بل أعيش بما يقدره لى رب العالمين » فسكت اللص ثم اعمل بمهمازه فى الجواد واختفى بين أشجار الغابة .

فقال ابن العراب فى نفسه : ماعلى لو نصحته مرة ثانية فانه اليوم ألين عريكة من ذى قبل . ثم صاح بأعلى صوته : « مازال امامك متسع من الوقت للتوبة والندامة فارجع عن غيك يا هذا » فرجع

اليه اللص مشهرا خنجره يريد قتله ففر ابن العراب من بين يديه وأخذ يعدو فى الغابة بملء فروجه فوقف اللص عن ملاحقته واكتفى بقوله : « هذه هى المرة الثانية وأنت تقف فى وجهى أيها العجوز فحذار فانك لاتفلت من يدى فى المرة الثالثة »

وفى مساء ذلك اليوم عند ماذهب ابن العراب ليسقى الاعواد كعادته كانت احداها وهى الأولى موضع اعجابه واندهاشه لانه رآها قداخضر عودها ودبت الحياة فيها وافترت عن شجرة تفاح صغيرة . فأشرق جبينه وعاد اليه الأمل وقد أيقن انه سائر فى سبيل التكفير عن خطاياه . ونظر ذات يوم الي السلة التى احتملها من الكهف السابق واذابها فارغة ليس بهاشىء من الخبز فتسلل الى الغابة يبحث عن نبات أو ثمر يعيش عليه واذابه يرى سلة أخرى من الخبز معلقة على احدى الاغصان فأخذها وعاد الي كهفه وعاش عليها مدة من الزمان لايعكر صفو حياته الا وعيد اللص اذ كلما تذكر تهديده ترتجف أعضاؤه فرقاً خوفاً من أن يقضى اللص عليه قبل تكفير ذنوبه الا انه فكر فى نفسه ذات يوم فقال : «أنا أجرمت ومع ذلك أهاب الموت ألايمكن أن تكون ارادة المولى ان أكفر عن خطيئتى بالموت » وما وصل من مناجاة نفسه الى هذا الحد حتى سمع صوت اللص يصخب ويلعن كمن يخاطب شخصاً آخر فقال فى نفسه « انما الخير والشر بيدالله » وقام لوقته

يريد مقابلة اللص فرآه ممتطيا فرسه وقد أردف خلفه رجلا آخر مكبل اليدين والرجلين يوسعه لكما وضرباً ويستنزل عليه اللعنات طول الطريق . فوقف ابن العراب فى وجهه وصاح به :

— الى أين أنت ذاهب بهذا الرجل ؟

— هذا ابن أحد التجار أبى أن يعترف لى أين أموال أبيه ولكنى سوف اذيقه كل صنوف العذاب حتى يقر لى بالمكان

ثم اعمل المهماز فى جواده يريد السير ولكن ابن العراب كان ممسكا بالفرس بكل قوته فلم يدعه يمر وقال له بلهجة الغاضب : دع هذا الرجل وشأنه . عند ذلك استشاط اللص من الغضب ورفع يده يريد لطمه وهو يقول : « أتريد أن تذوق طعم العذاب الذى أعددته لهذا الرجل ؟ تنح عن طريقى والا قتلتك شر قتلة » ولكن ابن العراب لم يتزعزع من مكانه بل وقف ثابت الجأش وأجاب اللص بقوله : « لا أدعك تنقل خطوة واحدة دون أن تمر على جثتى وتطأها بسنابك جوادك فانا لا أخاف سوى رب العالمين فهو الذى يثبت قدماى الآن لأجاهد فى سبيل الخير فلتكن مشيئة الله » فطرق اللص واجما ثم اخرج سكينا صغيرا قطع به قيود الشاب ونظر الى الرجل وابن العراب وهو يقول : « اغربا الآن عن وجهى وحذار أن تقف فى طريقى مرة أخرى ايها العجوز » فقفز ابن التاجر وانطلق يعدو فى الغابة . أما اللص فكان على وشك أن

يعلو جواده ثانية حينما أمسك الراهب بطرف ثوبه وأخذ فى نصحه وارشاده وكان اللص فى هذه المرة مطرقا لا ينبس ببنت شفة الا انه عاد فهز رأسه ثانية وركض بجواده نحو الغابة

وفى اليوم التالى لهذه الحادثة وجد الراهب ان الحياة دبت فى العود الثانى ونمت شجيرة تفاح اخرى بجانب الأولى

مرت على هذه الحادثة عشرة أعوام وقد جلس ابن العراب ذات يوم فى كهفه بطمأنينة وسلام وقلبه يطفح بشرا وسرورا ولا يعكر صفو هنائه خوف أو طمع وكان يفكر فى نعم المولى على عباده وكيف أن الله جلت قدرته هيأ لهم كل مافيه غبطتهم وسعادتهم وانهم هم الذين يوردون أنفسهم موارد البؤس والشقاء ويعملون على تعكير صفو الحياة باطماعهم وشرورهم ثم انتقل بفكره الى الانسان وماجبل عليه من شر والى الحياة الاجتماعية وما فيها من امراض وآلام فقال فى نفسه : « عار على الأبرح مكانى هذا بل على ان أسعي فى الارض أرشد الناس الى الطريقة المثلي لنزع الشر من بين جوانبهم !! وبينما هو غارق فى هذه الهواجس اذا باللص يمر من امامه فتركه يمر بدون أن يتعرض له بل قال فى نفسه « ان الكلام مع مثله لايجدي نفعا لانه لايفقه لما أقول معنى » ولكنه مالبث أن غير عزمه وقام مسرعا خلف اللص فرآه مغبر اللون مطرق الرأس خاشع البصر فأشفق عليه ووضع يده على

ركبته وخاطبه قائلا « كن رحيما بنفسك ياأخى . انك ظالما عثت فى الارض فسادا وأهلكت نفوسا بريئة وكنت شرا وبالا على الانسانية ومع ذلك فان الله رحيم بعباده يقبل توبة التائب ويعفو عن اساءة المسىء فهلا رجعت عن ضلالك وأشفقت على البقية الباقية من حياتك » فوجم اللص لا يتكلم ثم عاد يريد السير ثانية وهو يقول « دعنى وشأنى » ولكن ابن العراب لم ييأس بل طفرت من عينه دمعة سخينة مسحها بطرف ردائه واقبل على ارشاده ونصحه فنظر اللص اليه طويلا ثم رمى نفسه عن جواده وركع أمامه يقول :

— ها أنت ياسيدي قد ملكت على نفسى وظفرت بها أخيرا بعد أن قاومتك عشرين عاما فافعل بى ما تشاء فانى رهن اشارتك اذ لا طاقة لي باكثر من ذلك . نعم قد استفزنى الغضب عند ما وقفت فى طريقى تريد نصحى وارشادى فى المرة الأولى ولكن ما كدت تعتزل الناس وتزهد فى أعطياتهم حتى أخذت أقدر أقوالك ونصائحك حق قدرها اذ علمت أنك لم تنصحنى لغاية او فائدة وانما قلت ماقلته لمحض الخير والاحسان ومنذ ذلك اليوم قدرت جهادك حق قدره وساقنى عامل الاعجاب بك الى احضار الخبز اليك فى سلة كنت اعلقها على غصن احدى الاشجار القريبة من كهفك »

فتذكر ابن العراب عند ذلك تلك الحادثة التى مرت به عند ما كان بضيافة المرأة وكيف انها لم تتمكن من تنظيف المائدة الا بعد

أن غسلت تلك الخرقة التي كانت تمسح بها . كذلك هو لم يتمكن من تطهير قلب غيره الا بعد أن طهر ذات نفسه . ثم استطرد اللص حديثه قائلا « ولكن حتى ذلك الوقت كنت معجبا بك فقط ولم تؤثر نصائحك فى نفسى تأثيرها المطلوب الا بعد ماعلمت انك لا تهاب الموت »

فتذكر ابن العراب حينئذ ماراًه من أمر الصناع الذين كانوا يحاولون احناء القطعة الخشبية وانهم لم يتمكنوا من ذلك الا بعد أن ثبتوا الكتلة فى مكانها تمام الثبات فعلم ان نصائحه لم تؤثر فى اللص ذلك التأثير البليغ الا بعد ان طرح عن نفسه رداء الخوف من الموت واشعر قلبه حلاوة الايمان الصادق » ثم ختم اللص حديثه قائلا « ولكن لم يحترق قلبى بنار التوبة والاخلاص الا حينما رأيتك تشفق علىّ وتبكى لأجلى »

عند ذلك أخذ ابن العراب بيده وذهب به حيث الأعواد الثلاثة فرأى أن الحياة قد دبت فى الثالثة أيضاً فأشرق شعاع الامل بين جوانب نفسه وعلم أن الله قد تقبل توبته وغفر خطيئته وتذكر كيف أن الرعاة لم تتمكن من احراق الاعشاب واضرامها الا بعد ان ذكت النار تماما فعلم أن اللص لم تتم توبته الا بعد ان ذكت نفس مرشده تماما . عند ذلك قضى نحبه قرير العين هنىء البال بعد ماأفضى الى اللص بكل ماعلمه وتعلمه ثم أوصاه بارشاد الناس الى طريق الخير بالقدوة الصالحة والمثل الطيب .

الحكاية الرابعة

مكيدة شيطانية

واما الخمر فهى تزيل عقلا ... فتحت به مغالق مبهمات
ولو ناجتك اقداح الندامى ... عدت عن حملها متندمات
تذيع السر من حر وعبد ... وتعرب عن كنائن معجمات
فان هلكت خروسك ام ليلي ... فما انا من صحابك واللمات
فعنك تعود ابنية المعالى ... واطلال النهى متهدمات
وقد يضحى صحاتك اهل سجن ... وتلقين الكؤوس محطمات

«للمعرى»

فى صباح ذات يوم خرج قروى من كوخه الحقير يحمل تحت ابطه فطور ذلك اليوم موليا وجهه نحو الحقل الذى ما كاد يصل اليه حتى خلع معطفه ورماه تحت احدى الشجيرات بعد أن لف فيه مامعه من الخبز ، ثم شرع فى العمل. وبعد هنيهة انهكه الجوع وأضنى التعب جواده، فاطلق سراح الجواد وجلس هو ليأكل ما أعده للفطور ولما تفقد الخبز لم يجده بين طيات ثيابه فأخذ يقلب المعطف بين يديه ويدقق النظر فى كل جزيئاته . ولكنه عبثا كان يحاول اذأن الشيطان كان قد سبقه الى الشجيرة ، وسرق ما فى المعطف من الطعام ثم جلس منتظرا ان يسمع صخب القروى ولعناته على سارق الخبز الا أن فأله قد خاب لأن القروى مع

ماداخله من الاسف لم يتأثر كثيرا لفقد الطعام بل اكتفى بقوله : « ماعلى لو صبرت فان الجوع ليس بقاتلى وربما كان الآخذ فى حاجة الى ذلك الخبز فلهيئاً به » قال هذا القول وذهب توا الى بئر قريب منه حيث اطفأ ظمأه وارتاح قليلا من وعثاء العمل ثم عاد فأمسك بعنان جواده واستانف العمل ثانية .

اما الشيطان فقد استاء من عمل القروى اذ رآه أعقل من أن يقع فى الخطيئة فأسرها فى نفسه وعزم أن يخبر رئيسه بالامر وبالفعل ذهب من وقته الى ابليس وقص عليه الحكاية وكيف ان القروي لم يعبأ بفقد الخبز ولم يسخط على آكله بل تمنى له الهناءة والسرور ، فما كاد ابليس يسمع ذلك حتى غلى مرجل حقده وانتهر تلميذه قائلا : « انما اللوم فى ذلك راجع عليك لانك لم تقم بمهمتك كما يجب واعلم ان القرويين اذا ابتدأوا ينهجون على هذا المنوال واقتفى اثرهم فى ذلك زوجاتهم فالويل لنا نحن معاشر الابالسه ، فالامر خطير لايجعل بنا ان نتغافل عنه فانكص على عقبيك سريعا وأصلح خطأك هذا وان لم تنتصر على ذلك القروى الساذج فى ظرف ثلاث سنين فسوف اريك كيف يكون جزاء الاهمال » فعاد الشيطان الى الارض مسرعا وهو ينتفض فرقا وقد تقطعت نياط قلبه من تهديد الرئيس ، واخذ من وقته يفكر فى حيلة يوقع بها ذلك المسكين فى حبائله ، واخيرا اهتدى الى مشروع وجده كفيلا بنجاحه

فتزيا بزى احد العمال وتمكن من ان يدخل فى خدمة "القروى".

وفى عامه الاول نصحه بأن يبذر حبوبه فى أرض رطبه فعمل القروى بنصيحته وكان الجو من حسن حظه جافا فانتجت الارض محصولا جيدا فتمكن من ملء مخازنه واصبح لديه كميات وافره من القمح تزيد عن حاجاته . وفى عامه التالى عاد اليه الشيطان ينصحه بان يبذر حبوبه على ربوة من الارض ثم جاء وقت الحصاد وكان الصيف رطبا فاستفاد القروى من النصيحة وتوفر لديه شىء كثير من القمح يربو عما جناه فى عامه السابق . فحار فى امره ولم يدر ماذا يصنع بكل ذلك القمح الكثير فوسوس اليه الشيطان ان يستخرج منه نوعا من الخمر ففعل، وكان الخمر المستخرج قويا شديد التأثير فسر بهذا الاكتشاف واخذ يشرب منه هو وزوجه واهدى الى اصدقائه الشىء الكثير عند ذلك ذهب الشيطان الى رئيسه فرحا مستبشرا وقص عليه مافعله لاغواء القروى فقام ابليس مسرعا ليشاهد الامر بنفسه ويتحقق صدق مقاله ، ولما وصلا الى منزل القروى وجدا ان صاحب المنزل يستعد لحفلة ساهرة دعا فيها كل جيرانه الاعزاء ، ثم رأيا وفود المدعوين تقبل الى المنزل زرافات ووحدانا وصاحبة الدار قائمة بخدمتهم تقدم لهم كؤوس الخمر. وبينما كانت تدور عليهم بالاوانى اذا بها قد تعثرت فوقعت الاوانى من يدها وسال الخمر على الارض فاحتدم زوجها غضبا وصاح بها

يقول « ماالذى دهاك ايتها العسراء حتى احرقت هذه الخمرة اللذيذه على بساط الغرفه أظننت أن ما بين يديك من ماء البئر حتى اخذت فى اتلافه واسرافه » وما كاد الشيطان يسمع هذه الكلمات حتى غمز رئيسه قائلا « أسامع انت كلام ذلك القروى الساذج الذى لم يهتم لفقد كسرة الخبز » وبينما كان القروى ينتهر امرأته ويلومها على فعلتها اذا بقروى فقير دخل عليهم متطفلا واستوى جالسا على المائدة ينتظر اكرام صاحب الدار، ولما طال به الجلوس تمامل صاحب المنزل من جلوسه وتمتم يقول: « انا ليس فى وسعى ان اقدم شرابا لكل من يتطفل على موائدنا » فسمع ابليس هذه الكلمات وسر فى نفسه بهذه النتيجة الا ان تلميذه قال له وهو يبتسم : « انتظر قليلا فسوف ترى ماهو اعجب » وفعلا ما كاد يتم قوله هذا حتى كان القوم اخذتهم نشوة الخمر فاصبحوا يخادعون بعضهم البعض بالفاظ ملؤها الملق والرياء، عند ذلك قال ابليس: « اذا كان بعض الخمر يجعلهم على هذا الحال يروغون كالثعالب. فمن السهل ان نوقعهم جميعا فى حبائل مكرنا » فاجابه تلميذه « انتظر ماهو اهم فانك تراهم الآن يروغون كالثعالب ويتملقون بعضهم البعض ولكنك سوف تراهم عقب الكأس الثانية كالذئاب المفترسه ينهشون لحوم بعضهم البعض » ثم اتم الشيطان هذه الكلمات حتى كان الشراب يدور على القوم ثانية ، ثم ارتفعت من بينهم دواعى

الحشمة واصبحوا يتبادلون وحشى الكلام وقبيح الالفاظ ثم ادى بهم الامر الى المضاربة فملاكمة ، فتلألأ وجه بليس بشرا وهنأ تلميذه بذلك الفوز الباهر قائلا « هذه هى الخطوة الاولى فى سبيل النصر » فاجابه تلميذه « انتظر حتى النهاية تر ماهو أغرب فانهم الآن كالذئاب يكاد أحدهم يفترس صديقه ولكنك سوف تراهم كالخنازير عقب الكأس الثالثة »

عندها دارت الكؤوس عليهم مرة ثالثة فعلت أصواتهم وزاد صخبهم وأصبح كل منهم يلعن ويشتم بلاسبب ومن غير داع . وبعد برهة وجيزة انفرط عقد جمعهم وأخذوا يتسللون من مكان الدعوة جماعات ووحدانا يترنحون سكرا ويتمايلون ذات اليمين وذات الشمال ، ثم ذهب المضيف إثرهم ليشيعهم ولكنه ما كاد يخطو بضع خطوات حتى تعثر فى مشيته فوقع فى حفرة مملوءة بالاوحال وتلطخ بها من قمة رأسه الى أخمص قدميه ، فازداد ابليس لهذا المنظر بهجة وسرورا والتفت الى تلميذه يقول « لله درك فلقد كان نجاحك باهرا وفوزك مبينا ولكن خبرنى كيف صنعت هذا الشراب ؟ فلا ريب انك اضفت اليه بضع نقط من دم الثعالب وهذا ماحدابهم لان يروغوا ويتملقوا بعضهم البعض فى الكأس الأولى ، ثم اظن انك أضفت اليه بعضا من دم الذئاب ، اذ كان نتيجة ذلك انهم أصبحوا كالذئاب العاوية . واخالك أتممت العمل بوضع

نقاط من دم الخنازير حتى أصبحوا يمائلون الخنازير عقب الكأس الثالثة » فقال الشيطان

— « كلا فانك لم تصب كبد الحقيقة فليست هى الطريقة . وكل ما فى الامر انى بذلت مافى وسعى لان أجعل ذلك القروى يملك حبوبا أكثر مما يحتاج اليها ، فالانسان يجول فى عروقه دماء الحيوانية على الدوام وتظل هذه الغريزة كامنة فى نفسه طالما كان يملك من حطام الدنيا أقل من ضروريات، يدلك على ذلك ماأظهره القروى عند ماتحرشت به فى مبدأ الامر ولكنه ما كاد يتوفر لديه أكثر مما يحتاج اليه حتى أعماه الغنى وتمادى به الغرور فأخذ يبحث عن دواعى الملاهى والسرور وهنا سنحت الفرصة لاغوائه . فأخذت بيده الى طريقة من طريق الغواية اذ أرشدته الى صنع الخمر فاستلذها المسكين لسوء حظه وشربها عذبة سائغة فكان فى ذلك كالساعى الى حتفه بظلفه فانه ما كاد يكفر بانعم الله ويصير اعطياته خمرة تذهب برشده حتى ظهر ما كمن فى نفسه من تلك الدماء الخبيثة — دماء الحيوانية. فأصبح وحشا ضاريا بعد ان كان بشرا سويا وهو يظل كذلك وحشا مفترسا بعيدا عن مناهج الانسانية طالما يعاقر تلك المادة الدنسة .

الحكاية الخامسة

ثلاثة أسئلة

شكى مابه والهم يرسل دمعه أفانين شتى من عقيق ومن در
فقلت له أسعف فقيراً وداوه عسى يرفع الرحمن مابك من ضر

« محمود الجبالى »

أراد أحد الملوك مرة أن يقف على اجابة ثلاثة أسئلة جالت بخاطره وظن أنه ان تم له ذلك فلا يكون الفشل حليفه قط فى أى مشروع يأخذ على عاتقه القيام به . وما كاد هـذا الفكر يستقر فى فؤاده حتى أعلن فى طول البلاد وعرضها أن من يجيب الملك على أسئلته الثلاثة الآتيـة ينال جائزة قيمة . اما الاسئلة فهى:

(١) كيف يعرف الانسان الوقت المناسب للشروع فى أى عمل ؟

(٢) من هم الذين يجب الثقة بهم أو الابتعاد عنهم ؟

(٣) كيف يتسنى له معرفة أهم الاشياء التى يشتغل بها ؟ —

وما كاد هذا يذاع فى المدائن حتى تقاطر اليه العلماء من كل صوب، الا أنهم ذهبوا فى اجاباتهم مذاهب شتى .

فقال أحدهم اجابة عن السؤال الاول: اذا أراد الانسان أن يعرف حقيقة الوقت المناسب لبدء كل عمل فما عليه الا أن يخط جدولا يكتب فيه أسماء الايام والشهور والسنين محسوبة مقدما

ويواظب تماما على العمل به وبذلك يمكنه أن يؤدى كل عمل فى وقته المعين . وقال آخرون : إن من اخلاق الانسان أن يتنبأ بالوقت المناسب لكل شيء وانما الواجب عليه أن يراقب بكل دقة وانتباه مجرى سير الاحوال التى تحيط به ومتى علم ذلك صار من السهل عليه معرفة أى الاشياء أكثر أهمية فيبدأ بها فى وقتها . الا أن بعضهم اعترض عليهم فقال : مهما يكن الملك يقظا وواعيا لكل ما يحدث حوله فانه لا يتوصل لمعرفة ذلك الا بعقده مجلساً يتضمن كبار العلماء والعقلاء ليساعدوه بافكارهم على تحديد الوقت المناسب فرد عليهم آخرون بان هناك كثيراً من المسائل التى يجب البت فيها فى الحال ولا يمكن ارجاؤها حتى ينظر فيها المجلس فالطريقة المثلى لمعرفة ذلك هو التنبؤ بحوادث المستقبل وبما أن هذا لا يفقهه الا السحرة فالاجدر بالانسان مشاورتهم فى الامر .

وكان ما أصاب الاجابة عن السؤال الثانى من الاختلاف لا يقل عما أصاب سابقه . فقال أحدهم ان أنفع الناس للملك وأجدرهم بثقته هم وزراؤه ومستشاروه وقال آخرون الكهنة ورؤساء الدين وقال ثالث نطس الاطباء وقال رابع ان المحاربين وطائفة المجاهدين هم الاكثر ضرورة للملك دون سواهم .

أما السؤال الثالث فكان نصيب الاجابة عنه من تباين الآراء كذلك ما لا يقل عن سابقيه فأجاب بعضهم بأن أنفع الاشياء

للملك هو العلم وقال ثان المهارة فى الفنون الحربية وقال غيره الاشتغال بالامور الدينية.

ولما رأى الملك اختلاف العلماء وتباين أفكارهم لم يقتنع باجاباتهم فلم يرأحدا منهم جديراً بالجائزة المعدة. ولما لم يجد الملك ضالته المنشودة فى من وفد الى حضرته من العلماء وكانت رغبته تزداد فى الوقوف على أجوبة صحيحة لاسئلته الهامة، عمد الى المفاوضة مع ناسك مشهور بوافر عقله وغزير حكمته فقام لوقته وارتدى ملابس بسيطة (لان هذا الناسك لا يقابل الا العامة) ثم سار نحو الغابة التى اتخذها ذلك العابد مسكنا لا يبرحه. ولما دنا من صومعته ترجل عن جواده وذهب اليه وحيدا تاركا وراءه جنده وحراسه.

قرب الملك منه فوجده يحفر فى الارض امام كوخه فلما وقعت عينا الناسك عليه حياه واستمر فى عمله وبالنسبة لضعف جسمه ونحوله كان كلما جرف بمجرفته قطعة من الارض علت زفراته وتصاعدت أنفاسه فتقدم نحوه الملك مخاطبا اياه «انى أتيت اليك أيها الناسك العاقل ملتمسا منك الاجابة عن ثلاثة أسئلة. فهلا توليني سرورا بتحقيق امنيتى؟» فأصغى اليه الناسك الا انه لم يجبه بكلمة واحدة واستأنف الحفر. فزاد الملك قائلا «انى لأخالك قد تعبت الآن فأذن لى بالاشتغال برهة حتى تستعيض بعض قوتك» فشكره الناسك وأعطاه المجرفة وجلس هو ليستريح — بعد أن

جرف الملك مرتين توقف وأعاد أسئلته ثانيا فلم يعره الناسك أقل انتباه ولم ينبس ببنت شفه وقام لوقته ومديده للمجرفة يطلبها من الملك الا ان هذا أبى أن يعطيه اياها واستمر فى الحفر حتى مضت ساعتان وابتدأ قرص الشمس أن يختفى وراء الاشجار واذ ذاك توقف الملك عن العمل وقال للناسك « انى قصدتك أيها الحكيم لتجيبنى على أسئلتى فان لم يكن لك بها علم فاخبرنى حتى انصرف وأعود من حيث أتيت » فقال الناسك بلهجة تدل على الاهتمام « التفت . الا ترى رجلا مقبلا يمدونحونا ! هاهو . يجب أن نعرف أولا من هو » فالتفت الملك فرأى رجلا ذا لحية طويلة يتقدم مسرعا نحوهما واضعا كلتا يديه على بطنه والدم يسيل من تحتهما.

ما كاد هذا الغريب يصل حيث يجلس الملك حتى خر على الارض يصرخ من الألم ويئن انات متواصلة ففك الملك والناسك ثيابه المضرجة بالدماء والفيا جرحا بليغا يتدفق منه الدم فعنى به الملك وضمد جرحه بمنديله ومنشفة كانت عند الناسك ولكن مع كل هذا لم تقف حركة خروج الدم ، لذلك كان الملك نفسه يزيح العصابة ويمتص الدم بحرارة زائدة ويغسل الجرح مرات عديدة ثم يعيد اليه الضمادة ثانية وهكذا حتى انقطع الدم وانتعش الرجل وطلب جرعة ماء فاحضر الملك له الوعاء وأسقاه منه كفايته وفى ذلك الوقت مالت الشمس الى المغيب وأقبل الليل

بنسماته الباردة خمل الملك والنسيم الجريح وأدخلاه الكوخ وما كاد يوسدانه الفراش حتى أطبق عينيه واستغرق فى ثبات عميق. أما الملك فقد أعيته مشقة العمل وأنهكه تعب الحركة فجثا لوقته عند مدخل الكوخ واستسلم أيضاً لنوم هادىء طويل.

مضت تلك الليلة ونام الملك فيها ملء جفنيه ولما استيقظ فى الصباح أراد أن يعيد الى ذاكرته حوادث الليلة الماضية الا أنه قبل أن يتذكر أين هو؟ ومن ذاك الغريب النائم على الفراش الناظر اليه بعينين براقتين سمع صوتاً ضعيفاً يقول «سامحنى» فعلم أنه صوت ذلك الغريب الجريح فالتفت اليه وقال «يلوح لى أن ليس بينى وبينك سابق معرفة فعلام تطلب مسامحتى؟» فقال «نعم انك لا تعرفنى ولكنى اعرفك حق المعرفة. فانا عدوك الألد الذى حلف لينتقمن منك لانك أعدمت أخاه واغتصبت أملاكه وقد علمت بمجيئك الى هنا منفرداً فعزمت على قتلك عند أوبتك ولكنى عندما رأيتك لم ترجع وقد انقضى اليوم خرجت من مكمنى لأفتش عنك عسى أن التقى بك واذا بحراسك قد عرفونى فاطلقوا على بعض غدراتهم وأصابونى فهرعت من امامهم والدم يتدفق والآلام تزداد حتى رمانى الله بين يديك فضمدت جرحى وعطفت على. فما أطهر قلبك وأرق عواطفك! يارباه انى أتيت لاقتلك ولكنك أنقذتنى من الموت وبعثت فى الحياة ثانية فلا أشكرنك

ما حييت ولن أنسى هاتيك الايادى البيضاء ما دام فى عرق ينبض ولى لسان ينطق ولأكونن لك الخادم المطيع والعبد الأمين ما دمت استنشق نسمات الحياة وسآمر أولادى أن يقتفوا أثرى من بعدى فنوقف حياتنا جميعا لخدمة الملك »

ولا تسل عن سرور الملك وقتئذ فقد كان عظيما ولا شك فى ذلك فان الصلح الذى عقده مع عدو من ألد خصومه بدون أن يبذل فى سبيله اقل مجهود يعد حقا صفقة رابحة له . كيف لا وانه بذلك الصلح اجتز اسباب البغضاء التى اضرمت فى فؤاد ذلك العدو نار العداء واقتلع بذور الشحناء التى نبتت فى قلبه على توالى الزمن واقام مكانها فى رحبة ذلك القلب نفسه قصور المحبة تظللها اشجار الطاعة ودوحات الاخلاص ثم أمر طبيبه الخاص أن يعنى بالجريح عناية تامة ووعده برد كل املاكه الضائعة . وبعد أن استأذن الملك من الجريح بالانصراف عزم على الرحيل الا أنه ودان يقابل الناسك لآخر مرة عسى ان يهديه الى ضالته المنشودة فوجده يبذر الحب فى الأرض فلما قرب منه قال له « اتوسل اليك للمرة الاخيرة أن تجيبنى على اسئلتى حتى يطمئن بالى وتكون قد أسديت لى جميلا لا أنساه » فرفع الناسك اليه بصره وقال « انك لقد أجبت تماما على كل اسئلتك » فدهش الملك وقال متعجبا « كيف ذلك وما ذا تعنى ؟ » فرد عليه الناسك بقوله « الم تر انك لو لم تعطف

على بالامس ولم ترحم شيخوختى وضعفى وتركتنى أقاسى آلام العمل وحدى فان عدوك كان لابد قاتلك واذ ذاك كنت تعض أصبع الندم حسرة على عدم بقائك معى . فاعلم اذاً ان أثمن اوقاتك هو وقت اشتغالك بالحفر وأنفع رجل وقتئذ هو انا واسداؤك الخير الى هو اهم مااشتغلت به . ثم عند ماوصل الينا الرجل يتخبط فى دمائه كان أهم وقتك وقت اعتنائك به لانك لولم تضمد جراحه لقضى نحبه بدون ان تطفىء نار بغضائه وتحول عداوته المرة الى صداقة متينة وطاعة دائمة واذ ذاك كان الجريح بطل ذلك الوقت وماقدمته له من ايادى الخير اهم الاشياء وأنفعها لديك واكثرها فائدة لك . فاعلم جيدا ان ليس هناك الا وقت واحد هو من الاهمية بمكان وذلك الوقت هو (الآن) او البرهة التى انت فيها وما هذا الا لانك تكون فيه مالكا ومستجمعا لكل قواك الحالية واهم رجل هو من تتكلم معه فيها لانك لست عالما بما هو مسطر لك فى سجل القدر وفعلك الخير له أنفس ماتشتغل به لأن لهذا الغرض وحده دون سواه ظهر الانسان على مسرح الحياة .

الحكاية السادسة

— الياس —

يظن الفتى ان السلامة فى الغنى فيغلبه رغم النهى بالمقابح
ويحسب ان الربح فيما يناله على حين أمسى خاسرا غير رابح

« محمود الجبالى »

هناك تحت ظل حكومة اوفا عاش رجل يدعى الياس مات والده بعد ان اتم تأهيله بحول كامل غير تارك وراءه الا ثروة واسعة لا تزيد على سبعة افراس و بقرتين ومايقرب من العشرين رأسا من الغنم الا انه فوق ذلك خلف لفلذة كبده الحزم والجد فكانا نعم الثراء وحبذا الارث العظيم . اجل فقد كان الياس حازما مجدا لا يدع فرصة تمر بدون اقتناص ولا يني فى المثابرة على اصلاح شؤونه فكان يقوم مبكرا والناس نيام ويدلف الى فراشه بعد ان يهجع كل انسان، وجده وحزمه كانا كفيلين بتوسيع نطاق ممتلكاته وازدياد ثروته التى بلغت فى نهاية الخمسة والثلاثين عاما مائتين من الخيل ومائة وخمسين رأسا من الماشيه والف ومائتين من النعاج فضلا عمن كانوا يعوجون فى مزرعته من الرجال المأجورين والنساء المأجورات اولئك لرعاية ماشيته وقطعانه وهؤلاء لحلب بقره وافراسه وعمل الكومس (١) واستخراج الجبن والزبد . ومن

(١) شراب روسى مخمر يحضر من لبن الافراس

ذلك الوقت بسم له الدهر فاصبح الياس رب ثروة وافرة وصاحب املاك واسعة حسده عليها جيرانه ومواطنوه فقالوا عنه « الياس رجل مبخت حالفه الجد فرافقته السعادة واقبلت عليه الدنيا فأصبحت ضوع بنانه » ثم ذاع صيته وعلت شهرته وتهافت على زيارته كثيرون من سراة القوم وتسابق الى معرفته العدد العظيم ممن ودوا التقرب منه فكان يكرم مثواهم ويذبح لهم الذبائح ويقدم لهم كل شهى من الطعام ولذيذ من الشراب .

لم يرزق الياس الا ولدان وابنة كانوا عضده الاقوى ايام بؤسه يفلحون له الارض ويرعون الماشية ويباشرون كل اعمالهم بانفسهم أما وقد ارتاش الياس فقد تصارعت بين نفسيهما عناصر المفاسد ، ثم لقى اكبرهما مصرعه فى عراك وأد من الآخر على تعاطى المسكرات وانقاد لامرأته فى عدم اطاعة أبيه والاذعان لاوامره فانفصل عنه بعد ان لم يطق معه صبرا وقد منحه الياس منزلا يأويه وجاد عليه ببعض الماشية كى تعاونه على الحياة فكانت هذه التجزئة سبباً فى تصغير ثروته وفاتحة لمصائب جمه ، فعلى أثرها انتشر وباء فتاك حصد كثيراً من أغنامه وتلا ذلك سوء محصول القمح ثم أغارت عليه قبائل الكرغيز فسلبته الصافنات من جياده فأتى هذا ضغثا على إباله — وهكذا نخرت عوامل الضعف فى ذلك الثراء فانهار بنيانه وأخذت عوامل التلاشى تعبث ببقايا تلك الثروة الدارسة ، بينا كان اليأس يوسع الخطا نحو القبر ويئن تحت عبء

الشيخوخة الثقيل اذ أربى على السبعين . وقد انقطعت عنه أخبار ابنه القاصى أما الابنة فعداعليها المنون واختطفها من بين أبويها وبذلك فقد الشيخ وزوجه آخر نصير لهما فى الحياة . . . .

نزلت بهما كل هاتيك المصائب واحاطتهما الشدة احاطة السوار بالمعصم فألجأتهما الى بيع كل ماعندهما من بقايا أثاث المجد القديم حتى أصبحا لايملكان الامايستر عورتهما من ثياب ابلاها الدهر والحدثان وماهى الاعشية أوضحاها حتى كنت ترى الشيخ وزوجه فى حالة يستمطران معها أكف المحسنين . ويسألان العطف بعجوزين تقوس ظهراهما تحت عبء الفاقة والكبر وهكذا أنزلهم الزمان فى الحضيض بعد السنام وصدمهم بكلكله فاسترد ماأعارهم من مجد مؤثل وعز قديم .

بجوار منزل الياس كان يقطن محمد شاه رجل طيب القلب كريم الاخلاق الا انه ليس من ذوي الثراء الواسع . ما كاد هذا الرجل يرى ماوصل اليه جاره القديم حتى تذكر مجده الضائع وكرمه الماضى وعاودته ذكرى تلك السعادة التى تقلب بين أعطافها زمنا طويلا فعطف عليهما وقال لهما « هيا عيشا معى أيها الرفيقين واشتغلا بقدر ماتسمح به قوتكما وأنا الكفيل بامر طعامكما ولباسكما وقضاء كل مهامكما » فلم يسعهما الا أن يشكراه على حسن صنيعه وأصبحا من ذلك الوقت مشمولين برعايته بعد ان انتظما فى سلك خدمته .

لقد بدا لهما المركز حرجا والعمل شاقا فى أول الامر الا انهما ألفاه بتأثير العادة واستمرا يباشران كل مايقويان عليه من العمل بهمة ونشاط . وكان محمد شاه يرى ان من منفعته الاحتفاظ بمثل هذين العاملين لانهما تمرنا على كثير من الاعمال فضلا عما كان يبدو عليهما من اليقظة والنشاط الا انه من جهة أخرى كان كلما تمثلت امام عينيه شدة السقطة التى لاقاها هذان المنكودان — سقطة المجد من أعلى قمته الى أعماق هاوية المذلة السحيقة — هز رأسه أسفاً وحزناً واتفق ذات مرة أن وفد على محمد شاه بعض أقاربه القاطنين لزيارته وبرفقتهم أحد المتصوفين (ملا) وبينما هم جالسون يشربون الكومس واذا بشيخ نقض الدهر مرته يمر من امامهم فالتفت اليهم صاحب الدار قائلا « الا تروا هذا الرجل فاجابه احدهم . نعم وماذا بعد ؟ فاستمر يقول: «ان اسمه الياس ولقد اتى عليه يوم كان فيه أغنى رجل بيننا واكبر وجيه فى هذه النواحى . اما الآن وقد قلب له الدهر مجنه فأصبح مشمودا ضريكا فقد اشفقت عليه هو وزوجه وشملتهما بعطفى وادخلتهما فى خدمتى يشتغلان معى بقدر ما تسمح ارادتهما وانى لأخالكم قد سمعتم بهذا الاسم من قبل » فقال الزائر « كيف لا وقد عبقت شهرته فى طول البلاد وعرضها» واستمر المضيف يقول: «وهو وزوجه يقيمان معى الآن ويشتغلان عندى كعاملين » فهز الزائر رأسه بعد أن بدت على وجهه علامات الاسف وقال متأوها « ما أشبه الحظ بدورة الفلك فهو آونة يرفع المرء الى سماء السعادة وجنات النعيم وأخرى يؤدى به الى مقر البؤس والنحوس . ولكن هل قابله يا ترى منعم بالحزن

والاسى على تلك السعادة المفقودة والثروة الضائعة؟» فقال محمد شاه

— ومن يدرى فهو يعيش عيشة يحوطها الهدوء وتظلها السكينة ويباشر العمل بهمة لا تعرف الكلل فقال الضيف مخاطباً صاحب الدار

— أأذن لى ببضع دقائق أقضيها فى محادثة هذا الشيخ لاستجلى بعض أسرار حياته الماضية

— ولا

فناداه صاحب الدار قائلا « تعال أيها الشيخ الجليل لتشاركنا فى بعض كؤوس من الكوميس نقدمها اليك فاقترب الياس محيياً سيده وسائر ضيوفه ثم ناوله كأساً الا انه ما كاد يأخذ منها جرعة نخب الحاضرين حتى اعادها مكانها وجلس بجانب الباب وكذا أتت زوجته وجلست مختبئة وراء الستائر . بعدئذ ابتدأ الضيف فى محادثته قائلا :

— انا على ما أظن مسيئون اليك بوجودك بيننا فان ذلك ربما يذكرك سعادتك الماضية ويعيد اليك أشجانك الحاضرة فتبسم الياس وقال

— ان أردتم ان أحدثكم عن السعادة والشقاوة فلا أظنكم مصدقينى والاحرى بكم أن تسألوا زوجتى فهى امرأة وكل ما فى قلبها يظهر جلياً على لسانها فكلامها الصدق وحديثها هو كل ما يختلج فى أعماق فؤادها — فأدار الزائر وجهه نحو الستائر وسأل زوجة الشيخ كيف تقيسين بين سعادتك الغابرة . وشقائك الحاضر فاجابته قائلة اصغ الى فسأفضى اليك بالحقيقة . قضيت أنا وزوجى نحواً من خمسين عاما باحثين عن شىء مفقود منقبين عنه فى كل مكان فلم نجده الا الآن — نعم فى هاتين السنتين الاخيرتين فقط منذ

فقدنا كل شيء وصرنا عاملين عمرنا على ضالتنا المنشودة عمرنا على « السعادة » الحقيقية التي لا مطمع لنا بعدها

ما تفوهت المرأة بهذا الحديث حتى التفت كل من الجالسين الى الآخر التفاته دلت على ما داخلهم من الاندهاش الا انها استمرت في حديثها بكل تؤدة وهدوء، « نعم مكثنا نصف قرن كامل ونحن نفتش عن السعادة بين رياش الغنى وفي قصور الثراء فلم نعثر عليها الا الآن حيث ولت هاتيك الايام كالاشباح وانصرمت تلك الاوقات المشعشعة بانوار الثروة فسألها الضيف :

— كيف ذلك وماذا تعنين بالسعادة ؟ — فأجابته

— ما أشرقت علينا شمس الغنى حتى ظهرت من ورائها المتاعب الجمة وتوالت علينا الهموم العديدة : كنا نجلس لنفكر في الاهتمام بأمر أنفسنا قليلا ونود لو تفرغنا لتأدية الصلاة ولكن هيهات ! كنا نحاول النوم ولكن من أين لنا ذلك وجيوش الافكار تتقفانا فتطرد عن أعيننا الكرى، وإشباح المخاوف والوساوس تتأثرنا فتبعث بنا في ظلمة الليل وسكونه الي حيث نخاف أن يفترس الذئب فلوا أو عجلا أو يسرق اللصوص بعض خيولنا ونعاجنا وهكذا كلما خامر فؤادنا الريب ولعبت بنا الهواجس دفعنا الحذر الي الاستيقاظ عدة مرات .

كان يقصدنا الضيوف على اختلاف مشاربهم وتباين طبقاتهم فكنا نضطر الى ترضيتهم بما نقدمه لهم من أنواع الطعام ومختلف الشراب وما نتحفهم به من الهدايا الفاخرة حتى نحبس ألسنتهم فلا نكون هدفاً لسهام لغتهم ونسد أفواههم فلا ينزلوا علينا وابلا من

تذائف اللوم والتقريع

وفضلا عن كل ذلك لم يكن هناك توفيق بيني وبين زوجي فكنا على تباين تام وكان هذا مبعثا لاضطرام نار الشحناء التي كانت تتأجج ساعات وأيام . هذه كانت حياتنا سلسلة شقاء متواصل فمن أين اذا تطرق السعادة بابنا؟ وكيف نتمتع بالرخاء والهناءة وهذه حالنا ؟

اما الآن فنستيقظ من نومنا متبادلين تحية الصباح ثم نتناول طعام الافطار ونخرج الي العمل حيث نقضي سحابة نهارنا في هدوء شامل لا يكدر صفوه مكدر وعند الاوبة من العمل نلقى امامنا من الطعام ما نأكله مريئاً ومن الشراب ما نلذ به هنيئاً وامامنا متسع من الوقت يمكننا من الاهتمام بانفسنا وتأدية فرائض العبادة لله واذا دلفنا الى فراشنا ننام ملء جفوننا لا تزعجنا الاحلام ولا ترهبنا المخاوف والاوهام . فها هي السعادة التي نقبنا عنها نصف قرن ولم نثر عليها الا في هذه الايام »

ما أتمت المرأة حديثها حتى سخر منها الحاضرون الا ان الياس استفزه الغضب فقال لهم « لا تسترسلوا في ضحككم أيها الرفاق فليس في الامر ما يستوجب المجون والمزاح — وما هي الا حقائق الحياة نسردها لكم . لقد علمكنا الجهل بادىء بدء فانسجمت عبراتنا حزنا على ذلك العز الضائع ولكنها الحقيقة أراد الله أن يرينا اياها ناصعة فنحن الآن نقصها عليكم لا لنفسعة نترقبها أو فائدة ننشدها انما هي لفائدتكم وذكرى لمن يذكر .

فقال الملا : ان هذه لموعظة بالغة وقول الياس الصدق اذ هو موافق لما ورد في الاحاديث المأثورة فامسكوا عن الضحك واطرقوا كلهم يفكرون فيما دار بينهم من الحديث .